شعراء الإسلام

تاج الدين نوفل



شعراء الإسلام

الناشر

دار القلم للتراث

١٦ ش خاطر - التعاون- فيصل - الهرم

☎ ٣٨٢٣٠٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

(سورة الحشر : آية ٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة :

« إن من البيان لسحراً ... »

« وإن من الشعر لحكمة ... »

(صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم)

أما بعد

فهذه باقة ياسمين من بساتين الشعر ...

وصحبة ورد من حدائق الأدب . . توزن بالذهب ... بل باللآلئ والشهب ... قطفتها لك من هنا ومن هناك ... مستخلصاً أحلى الكتب ... فى هذا الكتاب .

وآثرت أن أجمع القليل الكثير . .

. . الطيب الأصيل . .

. . الزاهر النضير . .

. . الملهم الأثير . .

باقات ... باقات ... متتالية ... هذه هى الباقة الأولى ... تتبعها الثانية ...

وهذه الباقة ... أزهارها غالية ... أنفاسها عالية ... ناضرة ... زاهرة ... طيبة ... عاطرة ...

زهرة من لاهور ... ووردة من بوصير ... وياسمينة من مصر ... وزهرة من كرمة ابن هانئ وأخرى من على ضفاف النيل ... وأخرى من بلاد الشام ... وزهرة نبتت على نهر الفرات ... إلى آخر هذه الزهرات .

حتى اجتمعت لك باقة ... وافتتحت لك طاقة ... فى لؤلؤة براقة ... النفس لها تواقة ... والروح لها مشتاقة .

فاقطف منها ما تشاء ... واترك منها ما تشاء ...

وإلى اللقاء ... فى باقات أخرى إنشاء الله ...

تاج الدين نوفل

الإهداء

إلى :

النسر الطـائر ..

فى سـمـاء الله ..

إلى :

شـقيـق روحى ..

فى رحـلة الحيـاة ..

إلى :

الذى غرس فى قلبى شجرة الأدب ..

ومـن حـولى طـوق النجـاة ..

إلى :

الشـهيد ..

العقيـد ..

(ف ى ص ل)

بين يدى الله ..

تاج الدين نوفل



إذا الإيمان ضاع فلا أمان * ولا دنيا لمن لم يحى دينا

ومن رضى الحياة بغير دين * فقد جعل الفناء لها قرينا

وفى التوحيد للهمم اتحادٌ * ولم تبنوا العلا متفرقينا

« محمد إقبال »

حديث الروح

حديث الروح للأرواح يسرى   وتدركه القلوب بلا عناء
هتفت به فطار بلا جناح   وشق أنينه صدر الفضاء
ومعدنه ترابى ولكن   جرت فى لفظه لغة السماء
لقد فاضت دموع العشق منى   حديثاً كان علوى النداء
فحلّق فى ربا الأفلاك حتى   أهاج العالم الأعلى بكائى
تحاورت النجوم وقلن صوت   بقرب العرش موصول الدعاء
وجاوبت المجرة علّ طيفاً   سرى بين الكواكب فى خفاء
وقال البدرُ : هذا صوت شاكٍ   يواصل شدوه عند المساء
ولم يعرف سوى رضوان صوتى   وما أحراه عندى بالوفاء

* * *

شكواى أم نجواى فى هذا الدجى   ونجوم ليلى حسدى أم عودى
أمسيت فى الماضى أعيش كأنما   قطع الزمان طريق أمسى عن غدى
والطير صادحة على أغصانها   تبكى الربا بأنينها المتجدد
قد طال تسهيدى وطال نشيدها   ومدامعى كالطل فى الغصن الندى
فإلى متى صمتى كأنى زهرة   خرساء لم ترزق براعة منشد

شاعر الهند وباكستان

إنه الشاعر المعروف . . والمفكر الفيلسوف . . شاعر الإلهام . . شاعر الإسلام . . شاعر الحياة . . شاعر الجمال . . محمد إقبال . . شاعر الهند وباكستان .

إنه مفخرة الشرق فى عصوره الحديثة . فهو صفاء الخلاصة . . وخلاصة الصفاء فى المعرفة الكونية النابعة من الشرق . . وصفاء الخلاصة وخلاصة الصفاء للمعرفة العقلية الصادرة من الغرب ... فقد جمع المادة والروح ، والشكل والمضمون ، والجوهر والمظهر ووضعهما فى مصفاة روحه فخرجت على الدنيا صفاء من صفاء من صفاء .

إنه الشاعر المسلم الوحيد في عصرنا هذا الذى وهب نفسه وحياته للفكرة الإسلامية . . وأقام شعره وقلمه وبيانه فى سبيل تجلية عظمة الإسلام وفضله ، وما من شاعر ممن كتبوا عن الإسلام إلا شاركوا فيه فنوناً أخرى ما عدا إقبال .

قيثارتى ملئت بأنات الجوى ... لابد للمكبوت من فيضانِ
صعدت إلى شفتى خواطر مهجتى ... ليبينَ عنها منطقى ولسانى
أنا ما تعديت القناعة والرضا ... لكنما هى قصة الأشجانِ
يشكو لك اللهم قلب لم يعش ... إلا لحمد علاك فى الأكوانِ

* * *

من كان يهتف باسم ذاتك قبلنا ... من كان يدعو الواحد القهارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة ... لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيد داع قبلنا ... وهدى القلوب إليك والأنظارا
ندعو جهاراً لا إله سوى الذى ... صنع الوجود وقدر الأقدارا

* * *

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا
وفى التوحيد للهمم اتحادٌ ... ولم تبنوا العلا متفرقينا

* * *

ألم يبعث لأمتكم نبىٌّ ... يوحدكم على نهج الوئامِ
ومصحفكم وقبلتكم جميعاً ... منارٌ للأخوة والسلامِ
وفوق الكل رحمنٌ رحيمٌ ... إلهٌ واحدٌ ربُّ الأنامِ

وكان أبواه صالحين

كان والدا إقبال صالحين تقيين . . فأما أبوه فكان متصوفاً عاملاً كادحاً فى كسب رزقه من كد يمينه . . وعرق جبينه . . يعمل لدينه ودنياه . . ويضع أمام عينيه دائماً حديث النبى ﷺ . . « اعبد الله كأنك تراه .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . .

أطع أخي الإله ولا تطع هواكْ
فإنه النجاة ودونه الهلاك
وخفه ما حييت ولب إن دعاك
فإنه هنا وإنه هناك
إن لم تكن تراه فإنه يراك

تربية ونصيحة

ويؤثر عن إقبال أنه كان يلزم تلاوة القرآن كل صباح . . فقال له والده : إذا أردت أن تفقه القرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك . .

وهذه الكلمة في حد ذاتها لا تخرج إلا من قلب يعتنق الإيمان اعتناقاً . . ويعشق الإسلام عشقاً . . ويشتاق إلى الحق اشتياقاً . .

يقول محمد إقبال :

نزل على بيتنا ذات يوم سائل مسكين . . ظل يطرق الباب طرقاً متواصلاً . . فاهتزت أركان البيت من طرقه وعويله وصياحه . . وكان صوته كنحيب الغراب . . وقد غاظني هذا . . فخرجت إليه فهويت على رأسه بضربة بعثرت ما جمعه طوال يومه من تسوله وإلحافه . . والشباب لا يفرق بين خطأ وصواب .

فلما رأى والدي تلك الحادثة ... اصفر وجهه الأحمر ، وانحدرت الدموع نهراً على خديه . . فاضطربت روحي . . وطار لبي . . وقال مؤدباً ومهذباً وموجهاً :

تذكر يا بني جلال يوم المحشر . . يوم تجتمع أمة خير البشر . . أمام الله . . وتذكر ضعف قوتي . . وقلة حيلتي . . وانظر إلى لحيتي البيضاء . . وضعف جسمي المرتعش بين الخوف والرجاء ، عندما يأتي هذا المسكين . . أمام رب العالمين وخاتم النبيين .

ماذا أقول للنبي ﷺ إذا قال لي :

إن الله أودعك شاباً مسلماً فلم تؤدبه بأدبي ، بل لم تستطع أن تجعله إنسانا . . فتذكر هذا يا ولدي . . ولا تفضحني أمام ربي . . وأنت فلذة كبدي . . فكن تلميذاً في مدرسة محمد . . وكن زهرة في حديقة طه . . يحييها نسيم المصطفى . . وتتفتح في ربيع محمد . .

صفحة من ذهب

وأم محمد إقبال . . كانت تقية . . ورعة كوالده . . بل تزيد . . حتى أنها كانت تتحرج أن تأكل من وظيفة زوجها . . إذ كان يعمل مع رئيس له فى العمل يعرف بتقاضى الرشوة . . ولم يكن راتب زوجها من مال رئيسه . . ولكن كذلك كان ورعها وتقواها . . فكانت تتمثل دائماً حديث النبى ﷺ . . « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

ولإقبال فى أمه قصيدة طويلة من ديوانه « بانكك درا » يقول فيها :

سامت النجم بتربيتك .. وكان فخر الآباء والأجداد بيتك ..
كانت حياتك صفحة من ذهب فى كتاب الكون ..
وكانت قدوة فى الدين والدنيا .

فى البيت الطاهر المسلم

وفى هذا البيت الطاهر الطيب . . ولد شاعرنا محمد إقبال . . وروى أن والده رأى قبل مولده حمامة بيضاء ناصعة البياض . . تطير فى السماء . . فتقع فى حجره وتسكن إليه . . ففسرت رؤياه . . أنه سيرزق بغلام عظيم القدر . . رفيع الشأن . . عالى المنزلة . .

ولد محمد إقبال فى الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ١٢٨٩ هجرية ... ١٨٧٧ ميلادية ... ولم يأبه أحد بمولده . . إلا كما تأبه أسرة فقيرة بمولد ابن لها .

ولكن الله وحده كان يعلم يوم مولد إقبال . . أنه قد ولد فى هذا البيت الصغير من مدينة « سيالكوت » بالهند رجل يعلو فكره ، ويسمو قلبه على الزمان والمكان . .

فقد ولد فيلسوف نابغ . . وشاعر مبدع من الذين يهبهم الله تعالى للناس فى العصر بعد العصر . . ليخلقوا . . ويجددوا . . ويهدوا إلى طريق الحق . . ويضيئوا كالكواكب لسكان الأرض .

ثوب الجمال

بنا لبس العشق ثوب الجمال	وفاض على الكون طيباً وحسنا
وفطرة آدم فى كل حى	روتها الخلائق فى الدهر عنا
تعلمت الأمم الناهضات	من الشرق ديناً وعلماً وفنا
رفعنا الحجاب عن الكائنات	فنحن من الشمس والشمس منا

نعم ...

فلقد نشأ إقبال فى بيت مسلم عميق الإسلام . . تمتد شجرة الإسلام فيه إلى أكثر من ثلاثمائة عام قبل ميلاد إقبال . . فلقد دخل الإسلام إلى هذا البيت الطاهر عن طريق جده الأعلى على يد أحد الصالحين .

مراحل دراسته

تلقى إقبال تعليمه أولاً فى مكتب تحفيظ القرآن الكريم ... وبعد حفظه التحق بالمدارس الحكومية حتى اجتاز الامتحان الأخير بامتياز وتعلم اللغة العربية والفارسية على يد أستاذه السيد / مير حسن ... الذى تأثر به كثيراً . . ثم أتم دراسته بالكلية الحكومية بلاهور ... وتفوق فيها . . وبز أقرانه ... وحصل على أعلى الأوسمة ومراتب التفوق . . وفى الكلية تعرَّف على المستشرق الإنجلزى « توماس » صاحب كتاب دعوة الإسلام . . ثم تخرج بامتياز فعُيِّن مدرساً للتاريخ والفلسفة فى الكلية الحكومية . .

وعندما آنس فيه أساتذته البراعة والنبوغ . . أرسلته وزارة المعارف إلى لندن سنة ١٩٠٥م حيث التحق بالجامعة « كامبردج » وحصل على درجة عُليا فى الفلسفة . . وعلم الاقتصاد ثم رحل إلى جامعة ميونخ بألمانيا حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة . . ثم عاد إلى لندن لأداء الامتحان النهائى ... فى الحقوق ليحصل على الدرجة العليا فى القانون . .

وفى أثناء وجوده فى لندن حاضر عن الإسلام كثيراً . . وساهم فى التعريف به والدعوة إليه . . مما أكسبه ثقة وشهرة واسعتين . . ولم يترك هذه الفترة تمر هباء . . فأكب على دراسة الفلسفة العربية ، والفلاسفة المسلمين . . أمثال « ابن رشد » و « ابن سينا » و « ابن عربى » و « جلال الدين الرومى » و « الشيرازى » .

من ثم عمل أستاذاً للغة العربية فى جامعة لندن . . وذاع صيته ، واجتازت شهرته الآفاق فى تركيا . . وروسيا . . وبلاد الأفغان . . وفى ألمانيا ومختلف أرجاء المعمورة . .

ويُقيِّض الله لشاعرنا وفيلسوفنا من ينهض بشرح فلسفاته ونظرياته ويترجم أعماله إلى شعوب الأرض بمختلف اللغات . . فنرى فى ألمانيا . . الأستاذ « دايشو روسو » والدكتور

«فيشر» والشاعر «هانس» يترجمون لإقبال شعره وفلسفته مقارنين بينه وبين الشاعر «جوته» . . والفيلسوف «نيتشه» .

وقامت فى ألمانيا «جماعة إقبال» للإشراف على ترجمة آثاره وكذلك فعل «اسكاريا» فى إيطاليا و«ميكنرى» فى أمريكا و«نكلسون» و«براون» فى انجلترا . . و«الدكتور عزام» و«الأستاذ الجوهرى» فى مصر .

وهكذا عاش الفيلسوف والمفكر محمد إقبال فى قلب العالم ووجدانه . وفتح له التاريخ بابه ليوضع فى مصاف مفكرى العالم وفلاسفته العظام ...

ومن أجمل ما شدا به إبان عودته من رحلته إلى أوربا مروراً بصقلية التى توقف فيها فتذكر العروبة وأمجاد الإسلام . .

يقول إقبال :

أعينيَّ هذا أوان البكاء نشدتكما الله لا تبخلا
وما شئتما من دم فاسكبا سحائب دمع كقطر الندى
فإنى أرى يومنا من بعيد ويا لوعة القلب مما أرى
وللعرب كانت هنا دولة ومثوى حضارة أم القرى
عمالقة البيد خاضوا البحار فكانت لأسطولهم ملعبا
قصور الأباطرة المالكين تدانت لتوحيدهم سجدا

ثم يبكى على المجد القديم . . والفردوس المفقود . . بعواصم الإسلام فيقول إقبال :

ويوم أطاح ببغداد خطبٌ أحلَّ على الآمنين الردى
جرى دمع سعدى بشيراز شعراً أهاج القلوب وأدمى الحشى
ونكبة دهلى بمستعمرين أذلوا الكرام وداسوا الحمى
سقتها الروائع من شعر داغ بسكب غزير يذيب الصفا
وغرناطة جنة العالمين عروس المدائن تاج القرى
أعود إلى الهند مستعبراً بأنبل ذكرى لمجد خلا

هنا قد بكيت وفى الهند أبكى ... وأبكى الصديق معاً والعدا
هو القدر اختارنى لرثاء ... سأرسله صيحة فى الملا

شاعر فيلسوف

نعم ...

فإقبال شاعر فيلسوف .. وفيلسوف شاعر .. وقد التقى الفن بالفلسفة فى إبداع إقبال .. وليس ذلك بمستغرب فى حياة وتكوين الأديب المسلم أو الفيلسوف المسلم .. لأن الفلسفة من معانيها حب الحكمة .. والفن صياغة جمالية للحياة فى معناها ومادتها .. والنظرة الفلسفية إذا قيض لها أديب مبدع .. صاغها فى قالب أدبى جمالى .. دون أن يفقد شيئاً .. بل تزداد حسناً وجمالاً ، فترسخ فى الأفهام .. وتسكن فى القلوب .

بيد أن إقبال رغم تطوافه فى دنيا البشر عموماً .. وعالم الإسلام والمسلمين خصوصاً .. لم ينس أنه هندى مسلم .. فهو يطوف ويحلق بأفكاره فى كل ناحية وواد .. ولكن سرعان ما يعود إلى أصله الأعجمى .. وبلاده الهندية .. دون أن ينسى أنه مسلم .

يقول إقبال :

أنا أعجمى الدَّن لكن خمرتى ... صنع الحجاز وكرمها الفينانِ
إن كان لى نغم الهنود ولحنهم ... لكن هذا الصوت من عدنانِ

ثم يعدد المجد القديم لأمة الإسلام .. ويذكِّر حاضرهم بماضيهم .. وآخرهم بأولهم لعلهم يرجعون .. فيقول :

ملكنا هذه الدنيا القرونا ... وأخضعها جدود خالدونا
وسطرنا صحائف من ضياء ... فما نسى الزمان ولا نسينا
وكنا حين يأخذنا قوى ... بطغيان ندوس له الجبينا
بنينا حقبة فى الأرض ملكاً ... يدعمه شباب طامحونا
شباب ذللوا سبل المعالى ... وما عرفوا سوى الإسلام دينا
تعهدهم فأنبتهم نباتا ... كريماً طاب فى الدنيا غصونا

إذا شهدوا الوغى كانوا كماة يدكون المعاقل والحصونا
شباب لم تحطمه الليالى ولم يسلم إلى الخصم العرينا
إذا جن المساء فلا تراهم من الإشفاق إلا ساجدينا
كذلك أخرج الإسلام قومى شباباً مخلصاً حراً أمينا
وعلمه الكرامة كيف تبنى فيأبى أن يقيَّدَ أو يهونا

بيت الإسلام

لقد دعا الفيلسوف محمد إقبال إلى دولة مستقلة لمسلمى الهند . . وذلك عندما اضطهد المسلمون . . ولعب المستعمر الإنجليزى لعبته فى إبادتهم وكسر شوكتهم . . فدعا صراحة إلى ضرورة إنشاء دولة المسلمين الهنود . . ووضع حدودها الجغرافية . . كما وضع أسسها الفلسفية والأخلاقية . . وهكذا تجلى خياله العبقرى فى رسم تصوره لدولة باكستان باعتبارها الحل الوحيد الذى يحقق كرامة المسلمين فى الهند . . ويكفل لهم حقهم فى الحياة الحرة العزيزة . . ويساعدهم على تقديم نموذج الدولة الإسلامية التى تقوم على العقيدة الإسلامية ، والقومية الإسلامية .

يقول إقبال رحمه الله :

إن أمة لا تملك أرضاً تستند إليها لا دين لها ولا حضارة ، وإنما الدين والحضارة . . بالحكومة والقوة . . وإن باكستان هى الحل الوحيد للمشاكل التى يواجهها المسلمون فى هذه القارة الهندية .

ويشاء الله أن تقوم الدولة الإسلامية « باكستان » سنة ١٩٤٧ ميلادية بعد رحيل الشاعر محمد إقبال بتسعة أعوام . . فكان العلاّمة المودودى رحمه الله يسميها : « بيت الإسلام » .

يقول المودودى :

« إنى لا أعتبر هذه البلاد بلادنا .. بل هى بيت الإسلام .. لقد واتتنا الفرصة لأول مرة بعد قرون لنقيم دين الله فى صورته الحقيقية .. ونقدم للعالم أجمع المثال العملى لفلاح هذا الدين ونجاحه .

إنها نعمة كبرى أنعم الله بها علينا .. ويجب علينا أن نصونها ونحافظ عليها بشتى الطرق .. وبأى ثمن .

إننى أتمنى أن يشعر كل باكستانى بعاطفة تجاه هذه النعمة .. وأن يقدرها حق قدرها .. وأن يحفظها فى قلبه وروحه ، وأن يشعر أنه لا توجد أى تضحية أعظم وأغلى من الحفاظ على هذه النعمة » .

الكون لنا

الصين لنا والعرب لنا	والهند لنا والكون لنا
أضحى الإسلام لنا دينا	وجميع الكون لنا وطنا
توحيد الله لنا نور	أعددنا الروح له سكنا
الكون يزول ولا تمحى	فى الدهر صحائف سؤددنا
بنيت فى الأرض معابدنا	والبيت الأول كعبتنا
هو أول بيت نحفظه	بحياة الروح ويحفظنا
فى ظل الدين تربينا	وبنينا العز لدولتنا
علم الإسلام على الأيام	شعار المجد لملتنا
وأذان المسلم كان له	فى الغرب صدى من همتنا
قولوا لسماء الكون : لقد	طاولنا النجم برفعتنا
يا دهر أما جربت على	نيران الشدة عزمتنا
طوفان الباطل لم يعرف	بالخوف سفينة قوتنا
يا ظل حدائق أندلسى	أنسيت مغانى عشرتنا
وعلى أغصانك أوكار	عمرت بطلائع نشأتنا
يا دجلة هل سجلت على	شطّيكِ مآثر عِزتنا
أفواجك تروى للدنيا	وتُعيد جواهر سيرتنا

* * *

من القرآن والسنة

ومحمد إقبال هو الشاعر الإسلامى الوحيد الذى استوحى شعره من القرآن الكريم . . وسنَّة النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . . وآل بيته الطاهرين . . فجاء شعره من الإسلام . . وللإسلام وبالإسلام . .

نسب المسيح بنى لمريم سيرة ... بقيت على طول المدى ذكراها
وكذاك للمجد الرفيع مطالع ... فى بيت فاطمة فما أعلاها
هى بنت من؟ هى زوج من؟ هى أم من ... من ذا يدانى فى الفخار أباها
هى ومضة من نور عين المصطفى ... هادى الشعوب إذا تروم هداها
هو رحمة للعالمين وكعبة الآمـ ... ـال فى الدنيا وفى أخراها
من أيقظ الفطر النيام بروحه ... فكأنه بعد البلى أحياها
وأعاد تاريخ الحياة جديدة ... مثل العرائس فى جديد حلاها
ولزوج فاطمة بسورة « هل أتى » ... تاج يفوق الشمس عند ضحاها
أسد بحصن الله يرعى المشكلات ... بصقيل يمحو سطور دجاها
إيوانه كوخ وكنز تراثه ... سيف غدا بيمينه تياها
فى روض فاطمة نما غصنان لم ... ينجبهما فى النيرات سواها
فأمير قافلة الجهاد وقطب دائرة ... الوئام بالاتحاد بناها
حسن الذى صان الجماعة بعدما ... أمسى تفرقها يحل عراها
ترك الخلافة ثم أصبح فى الديار ... إمام ألفتها وحسن علاها
وحسين فى الأبرار والأحرار ما ... أزكى شمائله وما أنداها
فتعلموا رى اليقين من الحسين ... إذا الحوادث أظمأت بلظاها
وتعلموا حرية الإيمان من ... صبر الحسين وقد أجاد نداها
الأمهات يلدن للشمس الضياء ... وللجواهر حسنها وصفاها
ما سيرة الأبناء إلا الأمهات ... فهم إذا بلغوا الرقىَّ صداها
هى أسوة للأمهات وقدوة ... يترسم القمر المنير خطاها

لما شكا المحتاج خلف رحابها — رقت لتلك النفس فى شكواها
جاءت لتنقذه برهن خمارها — يا سحب أين نداك من جدواها
نور تهاب الناس قدس جلاله — ومن الكواكب أن تنال رضاها
جعلت من الصبر الجميل غذاء ها — ورأت رضا الزوج الكريم رضاها
فَمُها يرتِّل آى ربك بينما — يدها تدير على الشعير رحاها
بلَّت وسادتها لآلئُ دمعها — من طول خشيتها ومن تقواها
جبريل نحو العرش يرفع دمعها — كالطل يروى فى الجنان رباها
لولا وقوفى عند أمر المصطفى — وحدود شرعته ونحن فداها
لمضيت بالتطواف خلف ضريحها — وعمرت بالقبلات طيب ثراها

غروب الشمس

وفى شهر نيسان ١٩٣٨ اشتد المرض على الشاعر الكبير محمد إقبال . . وعنى الأطباء به كل عناية . . فما أغنى حرصهم على شفائه شيئاً . .

فلقد كان يحس بدنو أجله . . ويذكره فى حب وشوق للقاء الله . .

وفى مساء العشرين من نيسان . . دخل عليه ابنه جاويد . . وسنه حينئذ ثلاث عشرة سنة ، فقال له :

هلم إلىّ يا بنى : اجلس . .

فما أدرى لعلى ضيف عليك لبضع ساعات . .

فقال أحد الحاضرين :

إنه صغير السن يفزعه مرضك . .

فأجاب إقبال :

أريد أن يلقى كل حدث لقاء الرجال . .

ثم قال لابنه :

يا بنى :

إن فى عصرنا هذا قحطاً فى الرجال ، وعسير فيه الظفر بلقاء رجال الله . . فإن كنت سعيد الحظ . . لقيت أحد أصحاب البصائر . . وإلا فاعمل بتلك النصائح . .

وكان يردد قبل أن يموت :

نغمات مضين لى هل تعود	أنسيم من الحجاز يعود
آذنت عيشتى بوشك رحيل	هل يعلم الأسرار قلب جديد

ثم قال :

آية المؤمن أن يلقى الردى	باسم الثغر سروراً ورضا

ثم وضع يده على قلبه وهو يقول :

الآن بلغ الألم هنا ...

وتأوَّه ...

وأسلم الروح ...

وهو يبتسم ...

إلى بارئها ...

وحديثها يقول :

حديث الروح للأرواح يسرى	وتدركه القلوب بلا عناء
هتفت به فطار بلا جناح	وشق أنينه صدر الفضاء
ومعدنه ترابى ولكن	جرت فى لفظه لغة السماء
لقد فاضت دموع العشق منى	حديثاً كان علوىَّ النداء
فحلَّق فى ربا الأفلاك حتى	أهاج العالم الأعلى بكائى
تحاورت النجوم وقلن صوت	بقرب العرش موصول الدعاء
وجاوبت المجرة علَّ طيفاً	سرى بين الكواكب فى خفاء
وقال البدرُ : هذا صوت شاك	يواصل شدوه عند المساء
ولم يعرف سوى رضوان صوتى	وما أحراه عندى بالوفاء

* * *

شكواى أم نجـواى فى هذا الـدجى ... ونجـوم ليلى حسـدى أم عـودى
أمسيت فى الماضى أعيش كأنما ... قطع الزمـان طريق أمسى عن غـدى
والطير صادحة على أغصانها ... تبكى الربا بأنينها المتجدد
قد طال تسهيدى وطال نشيدها ... ومـدامعى كـالطل فى الغـصن الندى
فـإلى متى صمتى كـأنى زهرة ... خرساء لم ترزق براعة منشد

* * *

قيثارتى ملئت بأنات الجوى ... لابد للمكبوت من فيضان
صعدت إلى شفتى خواطر مهجتى ... ليبينَ عنها منطقى ولسانى
أنا ما تعديت القناعة والرضا ... لكنما هى قصة الأشجان
يشكو لك اللهم قلب لم يعش ... إلا لحمد علاك فى الأكوان

* * *

من كان يهتف باسم ذاتك قبلنا ... من كان يدعو الواحد القهارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة ... لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيد داع قبلنا ... وهدى القلوب إليك والأنظارا
ندعو جهاراً لا إله سوى الذى ... صنع الوجود وقدر الأقدارا

* * *

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا
وفى التوحيد للهمم اتحادٌ ... ولم تبنوا العلا متفرقينا

* * *

ألم يبعث لأمتكم نبىٌ ... يوحدكم على نهج الوئام
ومصحفكم وقبلتكم جميعاً ... منارٌ للأخوة والسلام
وفوق الكل رحمنٌ رحيمٌ ... إلهٌ واحدٌ ربُّ الأنام

* * *



فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ * وأنه خير خلق الله كلهمِ
وكل آى أتى الرسل الكرام بها * فإنما اتصلت من نوره بهمِ
فإنه شمس فضل هم كواكبها * يظهرن أنوارها للناس فى الظلمِ

« البوصيرى »

المادحون وأرباب الهوى تبعٌ ... لصاحب البردة الفيحاء فى القدم[1]
مديحه فيك حبٌ خالصٌ وهوىً ... وصادق الحبٌ يملى صادقَ الكلمِ

البوصيرى

« هو محمد بن سعيد »

ويكنى : بـ « شرف الدين أبى عبد الله محمد البوصيرى » .

أمه : من « دلاص » .

أبوه : من « بوصير » : التى تقع بين الفيوم وبنى سويف ...

ميلاده : فى غرة شوال (فى يوم العيد) سنة ٦٠٨ هجرية . . فى عصر اندلعت فيه الحروب الصليبية .

انتقل إلى القاهرة فى طلب العلم . . واستغل موهبته فى إجادة الخط واشتغل بكتابة شواهد القبور ، كما عمل مدرساً فى أحد الكتاتيب ، ثم انتقل إلى بلبيس من أعمال محافظة الشرقية ... ليشغل وظيفة هناك .

ثم بعد ذلك عاد إلى القاهرة حيث افتتح معهداً لتحفيظ القرآن الكريم . . ولقد تتلمذ على يد السيد / أبى العباس المرسى . . ثم عرف بعد ذلك بشعره الصوفى والاجتماعى ، ويمتاز شعره بالمداعبة ، والروح المصرية ، والنقد القاسى ، والمطالبة بالإصلاح . .

ومن أروع قصائده ، بل من أروع القصائد العربية . . قصيدة « البردة » ... وقصيدة « أم القرى فى مدح خير الورى » وقد اهتم بها كثير من الشراح . . فوضعوا لها عشرات وعشرات من الشروح ، ويفتتح البوصيرى قصيدته . . « أم القرى فى مدح خير الورى » . . بقوله :

كيف ترقى رقيك الأنبياءُ ... يا سماء ما طاولتها سماءُ
لم يساووك فى علاك وقد حـ ... ـال سنا منك دونهم وسناءُ
إنما مثلوا صفاتك للناس ... كما مثل النجوم الماءُ
أنت مصباح كل فضل فما ... تصدر إلا عن ضوئك الأضواءُ
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياءُ

(١) من شعر أحمد شوقى « نهج البردة » .

ثم يقول :

وسع العالمين علماً وحلماً ... فهو بحر لم يعيه الإعياءُ
خفيت عنده الفضائل والجـ ... ـابت به عن عقولنا الأهواءُ
أمع الصبح للنجوم تجل ... أم مع الشمس للظلام بقاءُ
رحمة كله وحزم وعزم ... ووقار وعصمة وحياءُ

البردة

أما قصيدة البردة :

فقد شغلت كثيراً من الشعراء عبر التاريخ الإسلامى ... فتسَّعها، وسبَّعها، وخمَّسها، كثير من الشعراء . . وعارضها الفحول من الشعراء أيضاً . . وفى طليعة من عارضوها رب السَّيف والقلم . . الشاعر الكبير محمود سامى البارودى . . بقصيدته التى مطلعها :

يا رائد البرق يمم « دارة العلم » ... واحد الغمام إلى حى بذى سلمِ

وكذلك عارضها أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصيدته الرائعة «نهج البردة» والتى مطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمى فى الأشهر الحرمِ

بصمات البوصيرى

إلا أنك تلاحظ فى قصائد من عارضوا البوصيرى ... بصماته واضحة على شعر معارضيه ... وكأنهم تابعون له ... مقلدون ... ومعترفون بفضله وسبقه عليهم يقول أحمد شوقى معترفاً بذلك ومقراً به :

المادحون وأرباب الهوى تبعٌ ... لصاحب البردة الفيحاء فى القدمِ
مديحه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملى صادق الكلمِ

إنه البوصيرى إمام المادحين ... وكوكب السالكين ... إلى الحق واليقين ... وطريق الله رب العالمين .

إنه صاحب البردة المباركة ... والكلمة الصادقة والحكمة اللاصقة . . فعلى الرغم من

أن الشعراء الذين مدحوا النبى ﷺ كثيرون . . إلا أن البوصيرى يتقدم عليهم جميعاً . . بل إن الناس لا يذكرون من شعر حسّان بن ثابت « شاعر النبى » ﷺ وكعب بن زهير صاحب البردة الأولى . . مثل ما يذكرون من شعر البوصيرى . . الذى يعد بحق وصدق إمام المادحين . . وسراج السالكين . . إلى يوم الدين . .

ذكرى

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضم

ثم يجيب البوصيرى نفسه برقة وجمال :

الهوى العذرى

نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى ... والحب يعترض اللذات بالألم
يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة ... منى إليك ولو أنصفت لم تلم

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تصوير النفس تصويراً دقيقاً لم يسبقه إليه غيره . .

رضاعة وفطام

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

ثم يبكى على ذنبه ويبكّى أصحاب الذنوب على ذنوبهم :

حمية الندم

واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت ... من المعاصى والزم حمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به ... وما استقمت فما قولى لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم

ثم ينتقل بعد ذلك لمدح النبى ﷺ ويصف زهده رغم حاجته . .

آية الزهد

وراودته الجبال الشم من ذهب — عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته — إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من — لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
محمد سيد الكونين والثقلين والفريقـ — ـين من عرب ومن عجم
نبينا الآمر الناهى فلا أحدٌ — أبر فى قول لا منه ولا نعم

اسم على مسمى

ومن الأسباب الرئيسية لتسمية البردة بهذا الاسم . . أن البوصيرى رأى فى المنام وكذلك بعض الصوفية . . أن الرسول ﷺ . . خلع عليه بردته عندما أنشده إياها . . كما خلعها الرسول من قبل فى اليقظة على كعب بن زهير عندما أنشده قصيدته الشهيرة التى جاء معتذراً بها والتى مطلعها :

بانت سعاد

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول — متيم إثرها لم يفد مكبول

ومن ثم سميت قصيدة البوصيرى بالبردة - كقصيدة كعب بن زهير ، وقيل أيضاً أنها سميت بالبرءة . . لأنها كانت سبباً فى شفائه لما توسل بها ، وأن التحريف بين البرءة والبردة أمر متوقع . .

قاب قوسين

سريت من حرم ليلا إلى حرم — كما سرى البدر فى داج من الظلم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة — من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها — والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم — فى موكب كنت فيه صاحب العلم
فحزت كل فخار غير مشترك — وجزت كل مقام غير مزدحم

* * *

قداسة وإجلال

هذا ولا تزال قصيدة البردة المباركة مثالاً رفيعاً تعجز الأقلام أن تبلغ مداه . . فلقد اهتم بها الناس فى المشرق والمغرب . . وأحاطوها بجو من القداسة والإجلال ، بل والغرابة أيضاً إلى الآن . .

فقد قيل أن الرسول ﷺ أتم بعض أبياتها للشاعر فى رؤيا منامية حين عجز الشاعر عن إتمامها . . مع وجود آيات قرآنية قد تتعارض مع هذه الأقوال . . كقوله تعالى فى سورة ياسين :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾[1] .

وقيل إن هذا لا يمنع ذاك . . .

مولد النور

أبان مولده عن طيب عنصره ... يا طيب مبتدأ منه ومختتم

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة ... تمشى إليه على ساق بلا قدم

وما حوى الغار من خير ومن كرم ... وكل طرف من الكفار عنه عمى

فالصدق فى الغار والصديق لم يرما ... وهم يقولون ما بالغار من أرم

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم

لا تنكر الوحى من رؤياه إن له ... قلباً إذا نامت العينان لم ينم

بركة البردة

وقيل أيضاً إن صاحبها توسل بها إلى الله فشفاه من فالج (شلل) كان قد أصيب به فى جانبه الأيمن . . وأنها كذلك أعادت الرؤية إلى نفر كانوا قد أوشكوا على فقدان نعمة البصر . . وجاء هذا فى عدد من كتب المؤرخين من بينهم « ابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات » والصفدى فى كتابه « الوافى بالوفيات » ولا تزال حكاية شفاء المرضى تلقى رواجاً كبيراً عند كثير من الناس حتى الآن . .

(١) سورة يس - آية : ٦٩ .

شهرة ورواج

هـذا ...

ولم تحظ قصيدة عربية كما حظيت به قصيدة البردة بين الخطاطين من شهرة ورواج . . فقد تبارزوا فى كتابتها ، وقد تفنن بعضهم فوشاها برقائق من الذهب الخالص ... وقد كتبها الخطاط الكبير « بيضاء وخارى » الذى قام بكتابتها آنذاك . . بالخط الفارسى الجميل المرصع بالذهب . . توج بها الجدران الأربعة لمسجد البوصيرى الكبير المطل على البحر بالميناء الشرقى لمدينة الإسكندرية . .

أكرم الخلق

يا أكـرم الخلق مالى من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بى ... إذا الكريم تحلى باسم منتقم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم
يا نفس لا تقنطى من ذلة عظمت ... إن الكبائر فى الغفران كاللمم
لعل رحمة ربى حين يقسمها ... تأتى على حسب العصيان فى القسم
يا رب بالمصطفى بلّغ مقاصدنا ... واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
واغفر إلهى لكل المسلمين بما ... يتلوه فى المسجد الأقصى وفى الحرم
يحق من بيته فى طيبة حرمٌ ... واسمه قسم من أعظم القسم

شعر المدائح

هذا ...

ولقد خرج الإمام البوصيرى على الدنيا بباقة من شعر المدائح ... أهداها للناس بعد رحلة مباركة إلى الأرض المقدسة . . باقة تمتاز برنينها . . وموسيقاها . . وأسلوبها الأنيق . . الرقيق . . يقول البوصيرى :

حياة القلوب

بمدح المصطفى تحيا القلوبُ وتغتفر الخطايا والذنوبُ
نبى كامل الأوصاف تمت محاسنه فقيل له الحبيبُ
رحيب الصدر ، ضاق الكون عما تضمن ذلك الصدر الرحيبُ
على قدر يمد الناس علماً كما يعطيك أدوية طبيبُ

أشعر بيت

والبوصيرى هو صاحب أشعر بيت . .

فقد سُئل عن أشعر بيت . . فقال رضى الله عنه :

وإنما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس إن كيساً وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ويقول فى حكمة بالغة . . وأسلوب رشيق . . فى فضل الشرف على المال . .

أصون عرضى

أصون عرضى بمالى لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض فى المالِ
أحتال للمال إن أودى فأجمعه ولست للعرض إن أودى بمحتالِ

غروب الشمس

هذا وقد أسلم الشاعر البوصيرى روحه إلى بارئها فى ٦٩٦ هجرية وله مسجده المشهور بالإسكندرية . .

أسلم روحه الطاهرة وهو يقول :

رحمة الله

يا نفس لا تقنطى من ذلة عظمت إن الكبائر فى الغفران كاللممِ
لعل رحمة ربى حين يقسمها تأتى على حسب العصيان فى القسمِ
يا رب واجعل رجائى غير منعكسٍ لديك واجعل حسابى غير منخرمِ

البردة المباركة

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا ... وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحسب الصبّ أن الحب منكتمٌ ... ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ... ولا أرقت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حباً بعدما شهدت ... به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى ... مثل البهار على خديك والعنم
نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى ... والحب يعترض اللذات بالألم
يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة ... منى إليك ولو أنصفت لم تلم
عدتك حالى لا سرى بمستتر ... عن الوشاة ولا دائى بمنحسم
محضتنى النصح لكن لست أسمعه ... إن المحب عن العذال فى صمم
إنى اتهمت نصيح الشيب فى عذل ... والشيب أبعد فى نصح عن التهم
فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ... ضيف ألم برأسى غير محتشم
لو كنت أعلم أنى ما أوقره ... كتمت سراً بدا لى منه بالكتم
من لى برد جماح من غوايتها ... كما يرد جماح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ... إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة ... وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت ... من المحارم والزم حمية الندم

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
أستغفر الله من قول بلا عملٍ ... لقد نسبت به نسلا لذى عقم
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به ... وما استقمت فما قولى لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم

* * *

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى ... أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى ... تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيَّما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من ... لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
محمد سيد الكونين والثقلـ ... ـين والفريقين من عرب ومن عجم
نبينا الآمر الناهى فلا أحدٌ ... أبر فى قول لا منه ولا نعم
هو الحبيب الذى ترجى شفاعته ... لكل هول من الأهوال مقتحم
دعا إلى الله فالمستمسكون به ... مستمسكون بحبل غير منفصم
فاق النبيين فى خلق وفى خُلق ... ولم يدانوه فى علم ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمسٌ ... غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم
وواقفون لديه عند حدهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
فهو الذى تم معناه وصورته ... ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النسم
منزه عن شريك فى محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم
لو ناسبت قدره آياته عظماً ... أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم
أعيا الورى فهم معناه فليس يرى للقرب والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آى أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس فى الظلم
أكرم بخلق نبى زانه خلق بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر فى ترف ، والبدر فى شرف والبحر فى كرم ، والدهر فى همم
كأنه وهو فرد من جلالته فى عسكر حين تلقاه وفى حشم
كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدف من معدنى منطق منه ومبتسم
لا طيب يعدل ترباً ضم أعظمه طوبى لمنتشق منه وملتثم

* * *

أبان مولده عن طيب عنصره يا طيب مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس أنهم قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات إيوان كسرى وهو منصدع كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الأنفاس من أسف عليه والنهر ساهى العين من سدم
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ورد واردها بالغيظ حين ظمى
كأن بالنار ما بالماء من بللٍ حزناً وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة والحق يظهر من معنى ومن كلم
عموا وصموا فإعلان البشائر لم تسمع وبارقة الإنذار لم تشم
من بعد ما أخبر الأقوامَ كاهنهم بأن دينهم المعوج لم يقم
وبعد ما عاينوا فى الأفق من شهب منقضة فوق ما فى الأرض من صنم
حتى غدا عن طريق الوحى منهزم من الشياطين يقفو إثر منهزم

كـــأنهم هـرباً أبطـال أبرهـة أو عسكر بالحصى من راحتيه رمى
نبـذا به بعـد تسـبيح ببطنهـما نبـذ المسبح من أحشـاء ملتـقم

* * *

جاءت لدعـوته الأشـجار ساجـدة تمشى إليـه على ســاق بلا قــدم
كـأنما سـطرت سطراً لما كـتبت فـروعــهـا مـن بديع الخط بالـلقم
مـثل الغـمامـة أنى سـار سـائرة تقيـه حـر وطيس للـهجيـر حـمى
أقـسـمت بالقـمـر المنشق إن له من قلبـه نسبـة مبـرورة القـسم
وما حـوى الغار مـن خير ومـن كرم وكل طرف مـن الكفـار عنه عـمى
فالصدق فى الغـار والصديق لم يرما وهم يقـولـون مـا بـالغـار من أرم
ظنوا الحمـام وظنوا العنكبـوت على خـيـر البـرية لم تنسج ولم تحم
وقـاية الله أغنت عن مـضـاعـفـة من الـدروع وعن عــال مـن الأطم
ما سامنى الدهر ضيـما واستجرت به إلا ونـلـت جــواراً مـنه لـم يضـم
ولا التـمـست غنى الـدارين من يده إلا استلمت الندى من خيـر مستلم
لا تـنكـر الوحـى مـن رؤيـاه إن لـه قلبــاً إذا نامت العــينان لم يـنم
وذاك حـين بلـوغ مـن نبـــوتـه فليس يـنكر فـيــه حــال محـتلم
تبــارك الله مــا وحى بمكتـسـب ولا نبـى على غـيـب بمتــهـم
كم أبرأت وصبـا بالـلمس راحتـه وأطلـقت أربـا من ربـقـة اللـمم
وأحيـت السنة الشـهبـاء دعـوته حتى حكت غرة فى الأعصـر الدهم
بعـارض جـاد أو خلت البطاح بهـا سـيب مـن اليم أو سـيل مـن العـرم

* * *

دعنـى ووصـفى آيـات له ظهــرت ظهــور نار القــرى ليـلا عـلى علم
فـالـدر يزداد حـسـنا وهو منـتظم وليس يـنقص قــدراً غـيــر منتظم
فـمــا تطاول آمــال المديح إلى ما فيـه من كـرم الأخـلاق والشيم
آيات حق مـن الرحــمن مـحـدثة قــديمة صفـة الموصـوف بالقــدم

لم تقترن بزمان وهى تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم
محكمات فما تبقين من شبه لذى شقاق وما تبغين من حكم
ما حوربت قط إلا عاد من حرب أعدى الأعادى إليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها رد الغيور يد الجانى عن الحرم
لها معان كموج البحر فى مدد وفوق جوهره فى الحسن والقيم
فما تُعد ولا تُحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
إن تتلها خفية من حر نار لظى أطفأت حر لظى من وردها الشبم
كأنها الحَوض تبْيَض الوجوه به من العصاة وقد جاؤه كالحمم
وكالصراط وكالميزان معدلة فالقسط من غيرها فى الناس لم يقم
لا تعجبن لحسود راح ينكرها تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهم
فلا تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

* * *

يا خير من يمم العافون ساحته سعياً وفوق متون الأينق الرسم
ومن هو الآية الكبرى لمعتبر ومن هو النعمة العظمى لمغتنم
سريت من حرم ليلاً إلى حرم كما سرى البدر فى داج من الظلم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم فى موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأواً لمستبق من الدنو ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تفوز بوصل أى مستتر عن العيون وسر أى مكتتم
فحزت كل فخار غير مشترك وجزت كل مقام غير مزدحم

وجل مقدار ما وليت من رتب — وعز إدراك ما أوليت من نعم
بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا — من العناية ركناً غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته — بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

* * *

راعت قلوب العدا أنباء بعثته — كنبأة أجفلت غفلاً من الغنم
ما زال يلقاهم فى كل معترك — حتى حكوا بالقنا لحما على وضم
ودوا الفرار فكادوا يغبطون به — أشلاء شالت مع العقبان والرخم
تمضى الليالى ولا يدرون عدتها — ما لم تكن من ليالى الأشهر الحرم
كأنما الدين ضيف حل ساحتهم — بكل قرم إلى لحم العدا قرم
يجر بحر خميس فوق سابحة — يرمى بموج من الأبطال ملتطم
من كل منتدب لله محتسب — يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
حتى غدت ملة الإسلام وهى بهم — من بعد غربتها موصولة الرحم
مكفولة أبداً منهم بخير أب — وخير بعل فلم تيتم ولم تئم
هم الجبال فسل عنهم مصادمهم — ماذا رأى منهم فى كل مصطدم
وسل حنيناً وسل بدراً وسل أحداً — فصول حتف لهم أدهى من الوخم
المصدرى البيض حمراً بعد ما وردت — من العدا كل مسود من اللمم
والكاتبين بسمر الخط ما تركت — أقلامهم حرف جسم غير منعجم
شاكى السلاح لهم سيما تميزهم — والورد يمتاز بالسيما من السلم
تهدى إليك رياح النصر نشرهم — فتحسب الزهر فى الأكمام كل كمى
كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا — من شدة العزم لا من شدة الحزم
طارت قلوب العدا من بأسهم فرقاً — فما تفرق بين البهم والبهم
ومن تكن برسول الله نصرته — إن تلقه الأسد فى آجامها تجم
ولن ترى من ولىٍ غير منتصر — به ولا من عدو غير منقصم
أحل أمته فى حرز ملته — كالليث حل مع الأشبال فى أجم

كم جـدلت كلمات الله مـن جدل ... فـيه وكم خـصم البـرهان من خـصم
كـفـاك بالعلم فى الأُمِّى مـعـجـزة ... فى الجـاهلية والتـأديب فى اليـتم

* * *

خـدمـتـه بمديح أسـتـقـيل به ... ذنوب عمـر مضى فى الشعـر والخدم
إذ قلدانى مـا تـخشـى عـواقـبـه ... كـأننى بهـمـا هدىٌ من الـنعم
أطعت غى الصبـا فى الحـالتين ومـا ... حـصـلت إلا علـى الآثام والـندم
فـيـا خسـارة نفس فى تجارتـهـا ... لم تشـتـر الديـن بالدنيـا ولـم تسم
ومن يـبع آجـلاً منه بعـاجـله ... يـبن له الـغـبن فى بيـع وفـى سلـم
إن آت ذنبـاً فـمـا عـهـدى بمنتـقض ... من الـنـبى ولا حبـلى بمنصرم
فـإن لى ذمـة منه بتـسـمـيـتى ... محـمـداً وهو أوفى الخـلق بالذمم
إن لم يكن فى مـعـادى آخـذاً بيـدى ... فـضـلاً وإلا فـقل يـا ذلة القـدم
حـاشـاه أن يحـرم الـراجى مكارمه ... أو يرجع الجـار منه غيـر مـحـتـرم
ومنـذ ألزمت أفكـارى مـدائحـه ... وجـدته لخـلاصى خـيـر ملتـزم
ولن يـفـوت الغنى منه يداً تـربت ... إن الحـيـا ينبت الأزهـار فى الأكم
ولم أرد زهرة الدنـيـا التى اقـتطفت ... يـدا زهيـر بما أثـنى عـلى هـرم

* * *

يا أكـرم الخـلق مـالى مـن ألوذ به ... سـواك عـند حلول الحـادث العـمم
ولن يضـيق رسـول الله جـاهك بى ... إذا الكـريم تحلـى باسـم منتـقم
فـإن مـن جـودك الدنيـا وضـرتـهـا ... ومـن علـومك عـلم الـلوح والـقلـم
يا نـفس لا تقـنطى مـن ذلة عظـمت ... إن الكبـائر فى الغـفـران كـاللمم
لعل رحـمـة ربى حين يقـسـمـهـا ... تأتى على حسب العصيان فى القسم
يا رب واجعـل رجائى غيـر منعكس ... لديك واجـعل حسـابى غـير منخـرم
والطف بعـبـدك فـى الدارين إن له ... صـبـراً مـتى تدعـه الأهوال يـنهـزم
وأذن لسـحب صـلاة منك دائمـة ... عـلى الـنبـى بمنـهل ومـنسـجـم

مـا رنحت عـذبات البان ريـح صبـا ... وأطرب العيس حادى العيس بالنغم
ثم الرضـا عن أبـى بكر وعن عـمـر ... وعن على وعن عـثـمـان ذى الكرم
والآل والصـحـب ثم التـابعـين فـهم ... أهل التـقـى والنقى والحلـم والكرم
يا رب بالمصـطفى بلغ مـقـاصـدنا ... واغـفـر لنا مـا مـضى يا واسع الكرم
واغـفـر إلهى لكـل المسلـمين بما ... يتلوه فى المسجـد الأقصى وفى الحرم
بجـاه من بيـتـه فى طيـبـة حـرم ... وإسـمـه قـسـم مـن أعظم القـسـم
وهذه بردة المخـتـار قـد خـتـمت ... والحـمـد لله فى بـدء وفى خـتـم
أبيـاتهـا قـد أتت ستين مع مـائة ... فـرج بهـا كـربنا يا واسـع الكرم

* * *

يا رب صلِّ على المختـار من مـضـر ... والأنبـيـا وجـمـيع الرسل مـا ذكـروا
وصل رب على الـهـادى وشيـعَتـه ... وصحبـه من لطىّ الدين قـد نشـروا
وجـاهدوا مـعـه فى الله واجتـهـدوا ... وهاجـروا وله آووا وقـد نـصـروا
وبينوا الفـرض والمسنون واعـتـصبوا ... لله واعـتـصـمـوا بالله فـانتـصـروا
أزكى صـلاة وأنماها وأشـرفـهـا ... يعـطر الكـون ريًا نشـرها العـطر
مـعـبـوقـة بعـبـيق المسـك زاكـيـة ... من طيـبهـا أرج الرضـوان ينتـشـر
عـد الحصى والثرى والرمل يتبـعها ... نجم السـمـا ونبـات الأرض والمدر
وعـد وزن مـثـاقـيل الجـبـال كـمـا ... يليـه قَطر جـمـيـع الماء والمطر
وعـدً مـا حوت الأشـجـار من ورق ... وكل حـرف غـدا يتلى ويسـتـطر
والوحش والطيـر والأسمـاك مع نعم ... يليـهم الجـن والأمـلاك والبـشـر
والذر والنمل مع جـمع الحـبوب كذا ... والشَّعـر والصـوف والأرياش والوبر
ومـا أحـاط به العـلـم المحـيط ومـا ... جـرى بـه القلم المأمـور والقـدر
وعـد نـعـمـائك اللائى مننت بـهـا ... على الخـلائق مذ كـانوا ومذ حـشروا

وعد مقداره السامى الذى شرفت ... به النبيون والأملاك وافتخروا
وعد ما كان فى الأكوان يا سندى ... وما يكون إلى أن تبعث الصور
فى كل طرفة عين يطرفون بها ... أهل السموات والأرضين أو يذروا
ملء السموات والأرضين مع جبل ... والفرش والعرش والكرسى وما حصروا
ما أعدم الله موجوداً وأوجد معـ ... ـدوما صلاة دواما ليس تنحصر
تستغرق العد مع جمع الدهور كما ... تحيط بالحد لا تبقى ولا تذر
لا غاية وانتهاء يا عظيم لها ... ولا لها أمدٌ يقضى فيعتبر
وعدٌ أضعاف ما قد مرّ من عدد ... مع ضعف أضعافه يا من له القدر
كما تحب وترضى سيدى وكما ... أمرتنا أن نصلى أنت مقتدر
مع السلام كما قد مر من عدد ... ربى وضاعفهما والفضل منتشر
وكل ذلك مضروب بحقك فى ... أنفاس خلقك إن قلوا وإن كثروا
يا رب واغفر لقاريها وسامعها ... والمسلمين جميعاً أينما حضروا
ووالدينا وأهلينا وجيرتنا ... وكلنا سيدى للعفو مفتقر
وقد أتيت ذنوباً لا عداد لها ... لكن عفوك لا يبقى ولا يذر
والهم عن كل ما أبغيه أشغلنى ... وقد أتى خاضعاً والقلب منكسر
أرجوك يا رب فى الدارين ترحمنا ... بجاه من فى يديه سبَّح الحجر
يا رب أعظم لنا أجراً ومغفرة ... فإن جودك بحر ليس ينحصر
واقض ديوناً لها الأخلاق ضائقة ... وفرج الكرب عنا أنت مقتدر
وكن لطيفاً بنا فى كل نازلة ... لطفاً جميلاً به الأهوال تنحسر
بالمصطفى المجتبى خير الأنام ومن ... جلالة نزلت فى مدحه السور
ثم الصلاة على المختار ما طلعت ... شمس النهار وما قد شعشع القمر
ثم الرضا عن أبى بكر خليفته ... من قام من بعده للدين ينتصر
وعن أبى حفص الفاروق صاحبه ... من قوله الفصل فى أحكامه عمر
وجد لعثمان ذى النورين من كملت ... له المحاسن فى الدارين والظفر

كـذا عليّ مع ابنيـه وأمـهـمـا أهل العباءِ كـمـا قـد جاءنا الخبر
سعدٌ سـعيـد بن عوف طلحة وأبو عـبـيـدة وزبـيـر سـادة غـرر
وحـمـزة وكـذا العبّاسُ سـيـدنا ونجله الـحَبر من زالت به الغـيـر
والآل والصحب والأتبـاع قـاطبـة مـا جن ليل الديـاجى أو بدا السَّحـر

* * *

القصيدة المحمدية

محمد أشرف الأعراب والعجم محمد خير من يمشى على قدمِ
محمد باسط المعروف جامعه محمد صاحب الإحسان والكرمِ
محمد تاج رسل الله قاطبة محمد صادق الأقوال والكلم
محمد ثابت الميثاق حافظه محمد طيب الأخلاق والشيمِ
محمد حبيت بالنور طينته محمد لم يزل نوراً من القدمِ
محمد حاكم بالعدل ذو شرف محمد معدن الإنعام والحكمِ
محمد خير خلق الله من مضرٍ محمد خير رسل الله كلهمِ
محمد دينه حق ندين به محمد مجملاً حقاً على علمِ
محمد ذكره روح لأنفسنا محمد شكره فرض على الأممِ
محمد زينة الدنيا وبهجتها محمد كاشف الغمات والظُّلَمِ
محمد سيد طابت مناقبه محمد صاغه الرحمن بالنِّعَمِ
محمد صفوة البارى وخيرته محمد طاهر من سائر التُّهَمِ
محمد ضاحك للضيف مكرمه محمد جاره والله لم يضمِ
محمد طابت الدنيا ببعثته محمد جاء بالآياتِ والحكمِ
محمد يوم بعث الناس شافعنا محمد نوره الهادى من الظُّلَمِ
محمد قائم لله ذو هممٍ محمد خاتم للرسل كلهمِ

* * *



كل من فى حمــاك يهـواك لكن * أنا وحـدى بكل من فى حـماكـا
فقت أهل الجمـال حسنا وحسنى * فـبـهـم فـاقـة إلى مـعـناكـا
يحشـر العاشـقون تحت لوائى * وجـمـيـع المـلاح تحت لواكـا

« ابن الفارض »

أنتم فروضى

أنتم فروضى ونفلى   أنتم حديثى وشغلى
يا قبلتى فى صلاتى   إذا وقفت أصلى
جمالكم نصب عينى   إليه وجهت كلى
وسركم فى ضميرى   والقلب طور التجلى(1)
آنست فى الحى ناراً   ليلا فبشرت أهلى
قلت امكثوا فلعلى   أجد هداى لعلى
دنوت منها فكانت   نارَ المكلم قبلى
نوديت منها جهاراً   ردوا ليالى وصلى
حتى إذا ما تدانى الـ   ميقات فى جمع شملى
صارت جبالى دكا   من هيبة المتجلى
ولاح سرٌ خفىٌ   يدريه من كان قبلى
فالموت فيه حياتى   وفى حياتى قتلى

هو أبو حفص عمر بن أبى الحسن الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار ، عرف بابن الفارض ، لأن أباه على ما يظهر من هذا اللقب كان يكتب فروض النساء على الرجال . .

وكان ابن الفارض ينحو فى شعره منحى الصوفية . .

أما من حيث الفن الشعرى . . فابن الفارض مقلد كثير التكلف والتصنع يتعمد المحسنات البديعية ، معنوية ولفظية على أنواعها . . ولا سيما الجناس . . فقد كان كثير الولوع به . . وقلَّما خلت قصيدة منه . .

وهذه المحسنات كانت مستحسنة فى أيام الشاعر . . لأن الشعراء كانت قرائحهم . .

(1) طور التجلى : جبل الطور الذى تجلى الله فيه لموسى عليه السلام . . يقول تعالى فى سورة مريم :
﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ .

قد جف معينها . . . فطفقوا يغيرون على معانى الأقدمين ، ويتفننون بإبرازها فى ألفاظ وتعابير مصطنعة . . فأتى شعرهم خاليًا من الابتكار . . ناضبًا من الحياة والعاطفة .

وحـــيـــاة أشـــواقـى إلـيـك ونعـــمـــة الـصـبـــر الجـــمـــيـل
مـا اســتـحـســنـت عـيـنـى سـواك ولا صـــبـــوت إلـى خلـيـل

نشأة ابن الفارض

ولقد نشأ ابن الفارض عفيفًا متصوفًا ، زاهدًا متعبدًا ، ورعًا متدينًا ، درس الحديث وفقه الشافعية ، وكان يحب الخلوة والعزلة والسياحة . . وكثيرًا ما كان يأوى إلى ناحية فى جبل المقطم ، أو فى أحد المساجد .

وحينما سلك ابن الفارض طريق التصوف بدأ بسلوك طريق التصفية ، والتنقية ، والتجريد ، وأخذ يسبح فى جبل المقطم ، ورحل إلى مكة وساح فى أوديتها . . وأكثر من مجاورة الكعبة . . والطواف والتعبد فى المسجد الحرام . . وأخذ يزداد من العلم والعمل ، والتذوق والاستقامة ، وكانت له أحوال ، ومقامات ، وفراسة ، ومكاشفة ، وكان لذلك كله أثره فى ترقيق خلقه وتهذيب نفسه وتصفية طبعه ، مما فجر فى قلبه ينابيع الشوق الروحى والحب الإلهى .

ولقد تكونت عند ابن الفارض مجموعة من الشمائل والفضائل ، مع فصاحة عبارة ، ودقة إشارة ، وتوقد عاطفة ، وتألق وجدان .

ويصور ابن الفارض لنا صورة من ذلك فيقول :

حدثت منى هفوة ، فوجدت مؤاخذة شديدة فى باطنى بسببها ... وانحصرت باطنًا وظاهرًا حتى كادت روحى تخرج من جسدى ، فخرجت هائمًا كالهارب من أمر عظيم فعله . . وهو مطالب به ، فصعدت جبل المقطم وقصدت مواطن سياحتى ، وأنا أبكى وأستغيث وأستغفر ، فلم ينفرج ما بى ، وقصدت مدينة مصر ، ودخلت جامع عمرو بن العاص ، ووقفت فى صحن الجامع خائفًا مذعورًا وجددت البكاء والتضرع والاستغفار ، فلم ينفرج ما بى ، فغلب علىّ حال مزعج لم أجد مثله ، فصرخت وقلت :

مـــن ذا الـــذى مـا ســـاء قـط ومـــن لـه الحســـــنى فقـط

فسمعت صوتًا بين السماء والأرض أسمعه ولا أراه يقول :

محمد الهادى الذى عليه جبريل هبط

شخصية ابن الفارض

ولقد عاش ابن الفارض فى عصر الأيوبيين ، وفيه شاع مذهب أهل السنة ، وصار فيه للصوفية مكانة ، فهو عصر يسوده المذهب السنى والاتجاه الصوفى والنزعة الشعرية ، ولقد تعاونت على تكوين شخصية ابن الفارض بيئات ثلاث :

الشام : وهى أصله ومنبت أسرته ، والشام تغلب على أهله رقة الطبع .

ومصر : مكان مولده ونشأته . . ولمصر مكانتها وعراقتها وأصالتها . .

والحجاز : وفيه أقام ابن الفارض خمسة عشر عامًا ، وللحجاز نفحاته وبركاته . .

تـه دلالا

ته دلالاً فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاكا
ولك الأمر فاقض ما أنت قاض فعلى الجمال قد ولاكا
وتلافى إن كان فيه ائتلافى بل عجل به جعلت فداكا
وبما شئت فى هواك اختبرنى فاختيارى ما كان فيه رضاكا
فعلى كل حالة أنت منى بى أولى ، إذ لم أكن لولاكا
وكفانى عزًا بحبك ذلى وخضوعى ، ولست من أكفاكا
كل من فى حماك يهواك لكن أنا وحدى بكل من فى حماكا
فقت أهل الجمال حسنًا وحسنى فبهم فاقة إلى معناكا
يحشر العاشقون تحت لوائى وجميع الملاح تحت لواكا
ما ثنانى عنك الضنا فبماذا يا مليح الدلال عنى ثناكا
لك قرب منى ببعدك عنى وحنو وجدته فى جفاكا
علم الشوق مقلتى سهر الليل فصارت من غير نوم تراكا

ســر ذيوع شعره

ولا ريب فى أن سر الإقبال على شعر ابن الفارض فى كثير من الأحيان . . هو ما فيه من معان رمزية ، جعلت الدكتور زكى مبارك فى كتابه « التصوف الإسلامى » يقول :

إنه لولا هذه المعانى الرمزية لانصرف الناس عن شعر ابن الفارض ، ورأوه أخف من أن ينصب له ميزان ، والعناية بهذا الشعر كانت فاتحة فى وزن المعانى بعد أن ظل الناس طويلاً يحرصون قبل كل شىء على وزن الألفاظ . . .

وابن الفارض من جهة المعانى فحل من الفحول ، حيث استطاع الجمع بين الحقيقة والخيال ، والحقيقة عنده هى الصورة الروحية ، والخيال هو الصورة الحسية التي يرمز بها إلى المعنويات .

وابن الفارض يمتاز بقوة الروح . . حتى روى أنه ألهم فى منامه بيتين من الشعر يقول فيهما :

وحـــيــــاة أشـــواقى إليك وحـــرمـــة الصبـــر الجـــمـــيل

مـا اســتحــســنت عـينى سـواك ولا صـــبـــوت إلى خلــيـل

وهما بيتان على جانب عظيم من القوة عند من يؤثرون المعانى ، وهل فى الحب أشرف من توحيد المحبوب . .

إن الشاعر يُقسم بأشواقه . . وحرمة الصبر الجميل . . أن عينه ما استحسنت سوى محبوبه ، وأن قلبه ما صبا إلى محبوب سواه . . والنفس قد تلهج فى عالم الأحلام بمعان شتى ، فليس من الكثير أن تلهم ابن الفارض فى نومه بالمعانى الشعرية ، ولكن الكثير أن يتفق لعقله الباطن ألا يتحدث بغير توحيد المحبوب ، وتلك شارة صدق . . والصدق هو الدعامة الأولى لقوة الروح .

وابن الفارض نصَّب نفسه أميرًا للصوفيين ، وسلطانًا للعاشقين ، وسراجًا للمحبين ، وملكًا دانت له كل الملوك . . وأسلموا له راياتهم . . ونكسوا له أعلامهم . . ولم تبق إلا راية واحدة . . هى رايته . . ولم يبق إلا علم واحد هو علمه فى سماء الحب الذى يرفرف عاليًا خفاقًا . . .

فقد نشر فى موكب العشاق أعلامه . . وصار الملوك خدَّامه . . فتجرد من ثيابه وأعلن إحرامه . .

موكب العشاق

نشرت فى موكب العشاق أعلامى ... وكان قبلى بُلى فى الحب أعلامى
وسرت فيه ولم أبرح بدولته ... حتى وجدت ملوك العشق خدامى
ولم أزل منذ أخذ العهد فى قدمى ... لكعبة الحسن تجريدى وإحرامى
وقد رمانى هواكم فى الغرام إلى ... مقام حب شريف شامخ سام
قضيت فيه إلى أن انقضى أجلى ... شهرى ودهرى وساعاتى وأعوامى
وكنت أحسب أنى قد وصلت إلى ... أعلى وأغلى مقام بين أقوامى
حتى بدا لى مقام لم يكن أربى ... ولم يمر بأفكارى وأوهامى
إن كان منزلتى فى الحب عندكم ... ما قد رأيت فقد ضيعت أيامى
أمنية ظفرت روحى بها زمنا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام
وإن يكن فرط وجدى فى محبتكم ... إثما فقد كثرت فى الحب آثامى
ولو علمت بأن الحب آخره ... هذا المطاف لما خالفت لوامى
لقد رمانى بسهم من لواحظه ... أصمى فؤادى فوا شوقى إلى الرامى
آها على نظرة منه أسر بها ... فإن أقسى مرامى رؤية الرامى

مكانة عالية

ولقد كان ابن الفارض يقرر لنفسه هذه المكانة ، وينوه بها معتزاً بسبقه فيها . . . يقول ابن الفارض :

كل من فى حماك يهواك لكن ... أنا وحدى بكل من فى حماكا
فقت أهل الجمال حسنًا وحسنى ... فبهم فاقة إلى معناكا
يحشر العاشقون تحت لوائى ... وجميع الملاح تحت لواكا

رأى تؤيده الآراء

وإذا كان هذا رأى ابن الفارض . . .

فإن ابن الفارض فى رأى الآخرين . . عامة . . وخاصة المتصوفين . . سلطان العاشقين . . وإمام المحبين . . وفى الهوى قدوة المقتدين ، فهو السابق على من تقدم وتأخر . . كما قال وقالوا . .

وهو العلم المعروف الذى يشار إليه هنا بالبنان . . ولا عجب فهو القائل :

زدنى بفرط الحب فيك تحيرا ... وارحم حشى بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة ... فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى
يا قلب أنت وعدتنى فى حبهم ... صبراً ، فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به ... صبًا ، فحقك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلى ومن ... بعدى ومن أضحى لأشجانى يَرى
عنى خذوا وبى اقتدوا ولى اسمعوا ... وتحدثوا بصبابتى بين الورى
ولقد خلوت إلى الحبيب ، وبيننا ... سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفى نظرة أملتها ... فغدوت معروفًا وكنت منكرا
فدهشت بين جماله وجلاله ... وغدا لسان الحال عنى مخبرا
فأدر لحاظك فى محاسن وجهه ... تلقى جميع الحسن فيه مصورا
لو أن كل الحسن يكمل صورة ... ورآه كان مهللا ، ومكبرا

مناجاة

ثم يناجى نفسه بعد ذلك متطلعًا إلى ربه . . متمسكًا بشهادة ألا إله إلا الله . . وشفاعة النبى الكريم (ﷺ) . . حرزاً له من النار . .

فيقول :

فما أنت نفس بالعلا مطمئنة ... وسرك فى أهل الشهادة ذائعُ

لقد قلت فى مبدا « ألست بربكم »[1]　　بلى قد شهدنا والولا متتابعُ
فيا حبذا تلك الشهادة إنها　　تجادل عنى سائلى وتدافعُ
وأجو بها يوم الورود فإنها　　لقائلها حرزٌ من النار مانعُ
هى العروة الوثقى بها فتمسكى　　وحسبى بها أنى إلى الله راجعُ
فيارب بالخل الحبيب ، نبينا　　رسولك وهو السيد المتواضعُ
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التى　　إليها قلوب الأولياء تسارعُ
فبابك مقصود وفضلك زائد　　وجودك موجود وعفوك واسعُ

أمل وتطلع

وابن الفارض دائم التطلع . . لمشاهدة الوجه العظيم ، والحسن القديم . . للرب الكريم سبحانه وتعالى . . متشوقًا إلى دار السلام . . وإلى حسن الختام ...

يقول ابن الفارض فى مقطوعته « أرنى أنظر إليك » :

إن أسعد الله روحى فى محبته　　وجسمها بين أرواح وأجسام
وشاهدت واجتلت وجه الحبيب فما　　أسنى وأسعد أرزاقى وأقسامى
ها قد أطل زمان الوصل يا أملى　　فامنن ، وثبت به قلبى وأقدامى
وقد قدمت وما قدمت لى عملاً　　إلا غرامى وأشواقى وإقدامى
دار السلام إليها قد وصلت إذن　　من سبل أبواب إيمانى وإسلامى
يا ربنا أرنى أنظر إليك بها　　عند القدوم ، وعاملنى بإكرام

(١) يشير الشاعر إلى الآية الكريمة (١٧٢) من سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾.

غـروب الشمس

وفى القـاهرة وفى يوم الثلاثاء من شـهـر جـمـادى الأولى ٦٣٢ هجـرية ٢٣ يناير ١٢٣٤ ميلادية أسلـم ابن الفـارض روحه إلى بارئها . . ودفن بسفح جبل المقطم فى مكان يقـال له القـرافة . . وقـد نسب إليه هذا المكان . . فقيل قـرافة ابن الفـارض . . عند مـجرى السـيل تحت المسجد المعروف بالعارض الذى أشار إليه الشاعر بقوله :

قف بالقـــرافـــة تحت ذيل العـــارضِ　　　وقل : السلام عليـك يا ابن الفارضِ
أبرزت فى نظـم السلوك عـجـــائبـا　　　وكـشـفت عن سـر مصـون غـامضِ
وشـــربت من بحـــر المحبـــة والولا　　　فـرويت مـن بحـر مـحـيـط فـائضِ

* * *

غيرى على السلوان قادر(1)

غـيـرى عـلى السـلوان قـادر | وسـواى فى العـشـاق غـادرْ
لى فـى الغـــرام ســريـرةٌ | والله أعـلــم بـالـســرائـرْ
ومـشـبـه بالغـصــن قـلبى | لا يـزال علـيـه طـائـر
حـلـو الحــديـث وإنـهـا | لحـلاوة شـقـت مــرائـرْ
أشـكـو وأشـكـر فـعـلـه | فـاعـجب لشـاك منه شـاكـرْ
لا تنكروا خـفـقـان قـلبى | والحـبـيب لـدى حـاضـرْ
مـا الـقـلـب إلا داره | ضـربت له فـيـها البـشـائرْ
يا تـاركى فـى حـبـه | مـثـلاً من الأمـثـال سـائرْ
أبدًا حـديثى لـيس بالمنسـ | ـوخ إلا فى الـدفـاتـرْ
يا لـيل مـا لـك آخــرٌ | يرجى ولا للشـوق آخـرْ
يا لـيـل طل ، يـا شـوق دم | إنى عـلى الحـالين صـابرْ
لى فـيـك أجـر مـجـاهـد | إن صـح أن الـلـيل سـاهرْ
طرفى وطرف الـنجم فـيـك | كـلاهمـا سـاه وسـاهرْ
يهـنـيـك بدرك حـاضـرٌ | يا ليت بدرى كـان حـاضـرْ
حـتـى يـبـين لـناظـرى | مـن منهـمـا زاه وزاهرْ
بدرى أرق مـحـاسـنًا | والفـرق مثل الـصبح ظاهرْ

* * *

(1) هذه القصيدة منسوبة إلى ابن الفارض ، إلا أنها مثبتة فى ديوان البهاء زهير . . كما أنه مثبت مكان وزمان إنشادها . . أما المكان . . فقلعة القاهرة وأما الزمان فيوم الخميس الخامس من المحرم لعام ٦٤١ هجرية . . ١٢٤٣ ميلادية ... والله أعلم لمن هى ؟

الحاكم بأمر الحب

نسخت بحبى آية العشق من قبلى — فأهل الهوى جندى وحكمى على الكلِ
وكل فتى يهوى ، فإنى إمامه — وإنى برىء من فتى سامع العذلِ
ولى فى الهوى علمٌ تجلّ صفاته — ومن لم يُفقهه الهوى ، فهو فى جهلِ
ومن لم يكن فى عزة الحب تائهًا — بحب الذى يهوى فبشره بالذلِ
إذا جاد أقوامٌ بمالٍ رأيتهم — يجودون بالأرواح منهم بلا بخلِ
وإن أودعوا سرًا رأيت صدورهم — قبورًا لأسرارٍ تُنَزَّهُ عن نقلِ
وإن هُدّدوا بالهجر ماتوا مخافة — وإن أوعِدوا بالقتل حنّوا إلى القتلِ
لعمرى هم العشاق عندى حقيقة — على الجد ، والباقون منهم على الهزل

* * *



يا خير من جاء الوجود تحية * من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا
بك بشّر الله السماء فَزُيِّنَت * وتضوعت مسكًا بك الغبراءُ
يوم يتيه على الزمان صباحه * ومساؤه بمحمد وضاءُ

*****

كم كنت أتمنى أن أكون شاعر الإسلام ... لا أمير الشعراء ..

احمد شوقى

« أمير الشعراء »

ولد الهدى

ولد الهدى فالكائنات ضياءُ ... وفم الزمان تبسم وثناءُ
الروح والملأ الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراءُ
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي ... والمنتهى والسدرة العصماءُ
والوحي يقطر سلسلاً من سلسل ... واللوح والقلم البديع رواءُ
يا خير من جاء الوجود تحية ... من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا
بك بشر الله السماء فزينت ... وتضوعت مسكًا بك الغبراءُ
يوم يتيه على الزمان صباحه ... ومساؤه بمحمد وضاءُ
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراءُ
لو لم تقم دينًا لقامت وحدها ... دينا تضيء بنوره الآناءُ
زانتك في الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماءُ
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواءُ
وإذا عفوت فقادرًا ومقدرًا ... لا يستهين بعفوك الجهلاءُ
وإذا رحمت فأنت أم أو أبُ ... هذان في الدنيا هما الرحماءُ
وإذا غضبت فإنما هي غضبةٌ ... في الحق لا ضغن ولا بغضاءُ
وإذا رضيت فذاك في مرضاته ... ورضى الكثير تحلم ورياءُ
وإذا خطبت فللمنابر هزةٌ ... تعرو الندى وللقلوب بكاءُ
وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما ... جاء الخصوم من السماء قضاءُ
وإذا حميت الماء لم يورد ولو ... أن القياصر والملوك ظماءُ
وإذا بنيت فخير زوج عشرة ... وإذا ابتنيت فدونك الآباءُ
وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاءُ
وإذا مشيت إلى العدا فغضنفرٌ ... وإذا جريت فإنك النكباءُ
وتمد حلمك للسفيه مداريًا ... حتى يضيق بعرضك السفهاءُ
في كل نفس من سطاك مهابةٌ ... ولكل نفس في نداك رجاءُ

شاعر الدنيا

إنه أمير الشعراء أحمد شوقى . . سيد البلغاء . . سيد الأدباء . . سيد الشعراء . . سيد السابقين واللاحقين فى أدب الدنيا وأدب الدين ، فلو فرضنا أو تصورنا أن الأدب سماء . . وأن الأدباء والشعراء والبلغاء نجوم . . كان شوقى هو القمر . . الذى إذا ذكر أو ذكر شعره ، أى لو طلع القمر . . خبت الكواكب والنجوم . . إنه أمير الشعر . . أمير الشعراء . . أمير الكلمة . . قائدها . . حارسها . . فارسها .

إنه شاعر مصر . . شاعر العرب . . شاعر الأقباط . . شاعر النصارى . . شاعر المسلمين . . شاعر الدنيا . . إنه العبقرى الفيلسوف أحمد شوقى . .

ريم على القاع بين البان والعلم ... أحل سفك دمى فى الأشهر الحُرمِ
رمى القضاء بعينى جؤذر أسداً ... يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجمِ
لما رنا حدثتنى النفس قائلة ... يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى ... جرح الأحبة عندى غير ذى ألمِ

ثم يقول :

صفوة البارى

محمد صفوة البارى ورحمته ... وبغية الله من خلق ومن نسمِ
ونودى اقرأ تعالى الله قائلها ... لم تتصل قبل من قيلت له بفمِ
هناك أذن للرحمن فامتلأت ... أسماع مكة من قدسية النغمِ
لقبتموه أمين القوم فى صغر ... وما الأمين على قول بمتهمِ

ثم يقول مخاطبًا النبى ﷺ :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرمِ
أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكه ... والرسل فى المسجد الأقصى على قدمِ
لما خطرت به التفوا بسيدهم ... كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلمِ
صلى وراءك منهم كل ذى خطر ... ومن يفز بحبيب الله يأتممِ

جُبت السموات أو ما فوقهن بهم — على منورة درية اللجم
مشيئة الخالق البارى وصنعته — وقدرة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سماء لا يطار لها — على جناح ولا يسعى على قدم
وقيل كل نبى عند رتبته — ويا محمد هذا العرش فاستلم

شعره الدينى

نعم . . لقد كان شوقى مسلمًا شديد الاعتزاز بإسلامه . . شاعرًا عبقريًا . . فيلسوفًا . . يصل به شعره الدينى إلى مراتب المتصوفة . . « كالبوصيرى » و « ابن الفارض » من الناحية الروحية . . وإن تجاوزهم فى الناحية الشعرية إلى درجة أعلى . . ونفس أجْلَى . .

ومما يجب أن نتلفت إليه فى شعره الدينى . . أنه لم يفته وهو فى غمار تصوفه أن يتحدث إلى أبناء وطنه فى شؤون حياتهم وما يجب أن يشرق عليهم من روح الإسلام ، من تحل بالفضائل . . وزهد فى عرض الحياة الزائل . . ودعوة إلى الخير والبر . . وتبشير بالعدالة الاجتماعية كجزء من رسالة الإسلام . . فى حثهم على الزكاة ، ومما يجعل لهذه اللفتة الرائعة قدرها . . أن شوقى قد سبق إليها الزمن ، ويشر بها قبل ذلك بأكثر من جيلين ، وجاهر بها فى عنفوان الطاغوت : الملكية والإقطاع . .

يقول شوقى مخاطبًا رسول الإنسانية . . وسراج البرية محمد ﷺ :

الاشتراكيون أنت إمامهم — لولا دعاوى القوم والغلواءُ
داويت متئدًا وداووا طفرة — وأخف من بعض الدواء الداءُ
الحرب فى حق لديك فريضةٌ — ومن السموم الناقعات دواءُ
والبر عندك ذمةٌ وفريضةٌ — لا منةٌ ممنونةٌ وجباءُ
جاءت فوحدت الزكاة سبيله — حتى التقى الكرماءُ والبخلاءُ
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى — فالكل فى حق الحياة سواءُ
فلو ان إنسانًا تخيَّر ملةً — ما اختار إلا دينك الفقراءُ

الصورة كالأصل

ومع أن شوقى لم يؤد فريضة الحج . . ولم ير المناسك والأركان . . إلا أنه كتب فى الحج والمناسك خيراً ممن كتبوا ممن حجوا واعتمروا . . وهذا دليل على براعة شوقى ، وقدرته الفائقة واستيعابه المطلق . . المتقن . . لما يسمع . . وقدرة على التصوير . . فالصورة عنده مثل الأصل تماماً . .

إلى عرفات الله

إلى عرفات الله يا خير زائر — عليك سلام الله فى عرفات
ويوم تولى وجهة البيت ناضراً — وسيم مجالى البشر والقسمات
على كل أفق بالحجاز ملائك — تزف تحايا الله والبركات
لدى الباب جبريل الأمين براحه — رسائل رحمانية النفحات
وزمزم تجرى بين عينيك أعيناً — من الكوثر المعسول منفجرات
ويرمون إبليس الرجيم فيصطلى — وشانيك نيرانا من الجمرات
لك الدين يا رب الحجيج جمعتهم — لبيت طهور الساح والعرصات
أرى الناس أصنافاً ومن كل بقعة — إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت — لديك ولا الأقدار مختلفات
ويا رب هل تغنى عن العبد حجةٌ — وفى العمر ما فيه من الهفوات
وأنت ولى العفو فامح بناصع — من الصفح ما سودت من صفحات
إذا زرت بعد البيت قبر محمد — وقبلت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت مع الدمع العيون مهابة — لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية — وضاع أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله يا خير مرسلٍ — أبثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها — كأصحاب كهف فى عميق سبات
بإيمانهم نوران : ذكرٌ وسنةٌ — فما بالهم فى حالك الظلمات
فقل رب وفق للعظائم أمتى — وهيئ لها الأفعال والعزمات

فى مولد النور

وفى ذكرى المولد النبوى الشريف . . كان شوقى السَّبَّاق دائماً . . إلى نشر النور . . وحمل الزهور . . بين يدى الرسول ﷺ :

سلوا قلبى غداة سلا وثابا — لعل على الجمال له عتابا
ويسأل فى الحوادث ذو صواب — فهل ترك الجمال له صوابا
وكنت إذا سألت القلب يومًا — تولى الدمع عن قلبى الجوابا
ولى بين الضلوع دم ولحمٌ — هما الواهى الذى ثكل الشبابا
تسرب فى الدموع فقلت ولى — وصفق فى الضلوع فقلت ثابا
ولو خلقت قلوب من حديد — لما حملت كما حمل العذابا
ولا ينبيك عن خلق الليالى — كمن فقد الأحبة والصحابا
فمن يغتر بالدنيا فإنى — لبست بها فأبليت الثيابا
جنيت بروضها وردا وشوكًا — وذقت بكأسها شهدًا وصابا
فلم أر غير حكم الله حكمًا — ولم أر دون باب الله بابا
وأن البر خير فى حياة — وأبقى بعد صاحبه ثوابا
نبى البر بينه سبيلاً — وسن خلاله وهدى الشعابا
وكان بيانه للهدى سبلاً — وكانت خيله للحق غابا
وعلمنا بناء المجد حتى — أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى — ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منالٌ — إذا الإقدام كان لهم ركابا
أبا الزهراء قد جاوزت قدرى — بمدحك بيد أن لى انتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيان — إذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزدت قدرًا — وحين مدحتك اقتدت السحابا
سألت الله فى أبناء دينى — فإن تكن الوسيلة لى أجابا
وما للمسلمين سواك حصن — إذا ما الضر مسهم ونابا

لغةٌ شاعرة

وفى حفل تكريم البطل العالمى فى حمل الأثقال « سيد نصير » ١٩٣٠ وقف شوقى مهنئًا ومؤدبًا . . فى بلاغة نادرة . . وحكمة بالغة . . من أدب الدين والدنيا . . داعيًا إلى تحمل الأعباء والصبر على الأذى . . مقارنًا بين أثقال الحديد . . وحديد الأثقال . . فى لفتة وجدانية رائعة . . لا تبغى إلا لشوقى . .

يقول شوقى :

شرفًا نصير ارفع جبينك عاليًا ... وتلق من أوطانك الإكليلا
اليوم يوم السابقين فكن فتى ... لم يبغ من قصب الرهان بديلا
يا قاهر الغرب العتيد ملأته ... بثناء مصر على الشفاه جميلا
قلبت فيه يدا تكاد لشدة ... فى البأس ترفع فى الفضاء الفيلا
إن الذى خلق الحديد وبأسه ... جعل الحديد لساعديك ذليلا
لم لا يلين لك الحديدولم تزل ... تتلو عليه وتقرأ التنزيلا
قل لى نصير وأنت برٌ صادقٌ ... أحملت إنسانًا عليك ثقيلا
أحملت دينا فى حياتك مرةً ... أحملت يومًا فى الضلوع غليلا
أحملت ظلمًا من قريب غادر ... أو كاشح بالأمس كان خليلا
أحملت منًا بالنهار مكرراً ... والليل من مسد إليك جميلا
أحملت طغيان اللئيم إذا اغتنى ... أو نال من جاه الأمور قليلا
أحملت فى النادى العيى إذا التقى ... من سامعيه الحمد والتبجيلا
تلك الحياة وهذه أثقالها ... وزن الحديد بها فعاد ضئيلا

شوقى بالأرقام

إن الأرقام والحقائق فى حياة شوقى تشير إلى أنه ولد بحى الحنفى بالقاهرة سنة ١٨٦٨ ، والتحق بمكتب الشيخ صالح ، ثم بالمدرسة الخديوية ، ثم بمدرسة الحقوق (قسم الترجمة) ثم سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والآداب سنة ١٨٨٧ وعاد منها سنة ١٨٩١ . . ثم نفى إلى أسبانيا سنة ١٩١٥ ، وعاد منها سنة ١٩١٩ .

وإن شئت مزيدًا من قصة نشأته فهو ابن أبيه «على شوقى» وكان على شوقى قد ورث مالاً كثيراً عن والده . . فبدده فى زهرة شبابه . . ويقول أحمد شوقى فى ذلك «ثم عاش بعمله غير نادم ولا محروم، وكأنه رأى لى ما رآه لنفسه ألا أقتات من فضلات الموتى» .

وأخذته جدته لأمه تكفله ، ودخلت به يومًا على الخديو . . وكانت من معتوقاته . . وهو فى الثالثة من عمره ، وكان بصره لا ينزل عن السماء . . وقد حار فيه الأطباء . . فطلب الخديو حفنة من الذهب . . ونثرها على البساط عند قدميه . . فوقع الطفل على الذهب يتطلع إليه ويجمعه ويتلهى به . . فقال الخديو لجدته :

اصنعى معه مثل هذا . . فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض .

قالت السيدة الذكية . . ولكن هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك . . فقال لها الخديو :

ائتنى به كلما عاودته هذه الحالة ، فإنى خير من ينثر الذهب فى مصر . .

لى جدة ترأف بى ... أحنى علىَّ من أبى
وكل شىء سرَّنى ... تذهب فيه مذهبى
إن غضب الأهل علىَّ ... كلهم لم تغضب
مشى أبى يومًا إلىَّ ... مشية المؤدب
غضبان قد هدد بالضـ ... ـرب وإن لم يضرب
فلم أجد لى منه ... غير جدتى من مهرب
فجعلتنى خلفها ... أنجو بها وأختبى
وهى تقول لأبى ... بلهجة المؤنب
ويح له .. ويح لهذا ... الولد المعذب
ألم تكن تصنع ما ... يصنع إذ أنت صبى

ونشأ شوقى مسلمًا وترعرع مؤمنًا . . صادق الإيمان يضع أمام عينيه دائمًا حديث النبى ﷺ ، « من لم يهمه أمر المسلمين فليس منهم » . . فعاش مواكبًا بقلبه وروحه وفكره وقلمه . . قضايا المسلمين عامة وخاصة . .

يقول شوقى مهنئًا ومحييًا الأزهر الشريف وعلماءه الأجلاء نجوم الأرض وكواكبها . . بمناسبة إصلاحه :

قم فى فم الدنيـــا وحى الأزهرا ... وانشر عـلى سمع الزمـان الجوهرا
واجـعل مكان الدر إن فـصلته ... فى مدحه خرز السماء النيرا
واذكره بعد المسجدين معظمًا ... لمساجد الله الثلاثة مكبرا
واخشع مليًا واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرًا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانًا وأفخم مظهرا
حتى ظننا الشافعى ومالكًا ... وأبا حنيفة وابن حنبل حضرا
إن الذى جعل العتيق مثابة ... جعل الكنانى المبارك كوثرا

شاعر الأخلاق

إنه شاعر الأخلاق الذى تغنى بها أكثر مما تغنى غيره ، وأجاد فيها أكثر مما أجاد سواه . . فصارت حكما . . وجواهر . . وقلائد . . على صدر الحياة . .

يقول شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويقول :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تستقم

ويقول :

وليس بعامر بنيان قوم ... إذا أخلاقهم كانت خرابا

شاعر العلماء والمعلمين

ثم ها هو يعظم العلم ويوقر العلماء والمعلمين . . فى دعوة ملؤها الحب . . والاحترام . . والتقدير . . والإجلال . . لمن علم وربى نفوسًا وعقولاً . . وأخرجها من الظلمات إلى النور . . فكشف الله به الغمة . . ومَحَا به الظلمة ، وأتم به النعمة ، وأعلى به الكلمة . .

يقول شوقى :

قم للمعلم وفه التبجيلا	كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذى	يبنى وينشئ أنفساً وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم	علمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته	وهديته النور المبين سبيلا
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا	وابن البتول فعلم الإنجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمداً	فسقى الحديث وناول التنزيلا

شاعر اليتامى

ثم يوجه شوقى بعد ذلك حديثه إلى الآباء الذين ينشغلون عن تربية أولادهم ، والأمهات اللائى يتخلين عن تربية أولادهن تحت أى دعوى . . ويقول لهم ليس اليتيم من مات أبواه حيث من مات أبواه يعرفه الناس ويعطفون عليه . . ولكن اليتيم الحق هو الذى ينشغل عنه أبوه وتتخلى عنه أمه . . وتعهد بتربيته إلى المربيات . . والخادمات . . فمن ترك ابنه لخادم نشأ له خادمان . .

يقول شوقى . .

ليس اليتيم من انتهى أبواه من	هم الحياة وخلّفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له	أمًا تخلّتْ أو أبًا مشغولا

ثم يعود إلى المعلم الأعظم محمد بن عبد الله مادحًا ومعظمًا :

يا أيها الأمى حسبك رتبة	فى العلم أن دانت بك العلماءُ
يوحى إليك النور فى ظلماته	متتابعًا تُجلى به الظلماءُ
دين يشيد آية فى آية	لَبِنَاته السورات والأضواءُ
الحق فيه هو الأساس وكيف لا	والله جل جلاله البنَّاءُ
بك يا ابن عبد الله قامت سمحة	بالحق من ملل الهدى غراءُ
بنيت على التوحيد وهو حقيقةٌ	نادى بها سقراط والقدماءُ

ومشى على وجه الزمان بنورها كُهَّان وادى النيل والعُرَفَاءُ
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاءُ

ثم يلخص الدين الإسلامى كله فى بيت واحد من الشعر ببراعة ومقدرة ، وكفاءة وإعجاز . . لا ينبغى إلا لشوقى :

والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاءُ

وعلى علماء اللغة أن يقفوا وقفة المتأمل أمام هذا البيت وأمثاله من الشعر الجيد ، فإنه لا يستطيع شاعر . . مهما أوتى من بلاغة وبيان أن يلخص ديانة أمة بأسرها فى بيت واحد من الشعر :

والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاءُ

رؤيا صالحة

ولا يفوتنى وأنا هنا . . فى هذا المقام . . إلا أن أسجل لشوقى تلك الرؤيا الصالحة التى رآها له أحد الصالحين . . فقد رأى أحد الصالحين . . من يلقى عليه قصيدة « ولد الهدى » حتى إذا جاء عند قوله :

والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاءُ

قال له : أقرأتَ ولد الهدى ، أوَعَيتَ ولد الهدى . . إن الله قد غفر لشوقى بها . .

غفر الله لشوقى ورضى الله عنه . .

ولقد كان شوقى حَفيًا بدينه . . منذ شبابه . . حَفيًا به إلى نهاية حياته . . حيث ساير شعره الدينى حياته كلها ، فلقد كان فى سماحته مثالاً لسَماحة الإسلام . . فعاش حياته يدين بما يقتضيه الإسلام من حرية العقيدة ، وسماحة النفوس . .

وفى خلال المؤامرات الطائفية . . كان شوقى يتغنى بالمسيح بن مريم ، ويقرن ذكره دومًا بذكر محمد بن عبد الله ﷺ ، فينزل قوله بردًا وسلامًا على القلوب جميعًا . .

ويشاء الله رب العالمين . . أن يأتى عيد الهجرة مع عيد الميلاد فى وقت واحد . . فى

أحد أعوام الفتنة . . والمعروف أن العيدين يجتمعان مرة كل مائة عام ميلادى فى يوم واحد . . ومرة كل ثلاثة وثلاثين سنة . . فى يومين مختلفين . .

ميلاد وهجرة

يقول شوقى :

عيد المسيح وعيد أحمد أقبلا يتباريان وضاءة وجمالا
ميلاد إحسان وهجرة سؤدد قد غيرا وجه البسيطة حالا

ثم يتحدث عن فتح الترك للقسطنطينية وتحويل « أيا صوفيا » من كنيسة إلى مسجد مما قد تبلبل معه خواطر متعصبة ، فيقول شوقى دعوة للسماحة والجمال :

كنيسة صارت إلى مسجد هدية السيد للسيد
كانت لعيسى حرمًا فانتهت بنصرة الروح إلى « أحمد »

ثم ها هو ذا يتحدث عن ميلاد المسيح ودخول المسيحية إلى مصر فيقول :

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحياءُ
ازدهى الكون بالوليد وضاءت بسناه من الثرى الأرجاءُ
وسرت آية المسيح كما يسرى من الفجر فى الوجود الضياءُ
لا وعيدٌ لا صولة لا انتقام لا حسام لا غزوة لا دماءُ
ملك جاور التراب فلما مل نابت عن التراب السماءُ
إنما ينكر الديانات قوم هم بما ينكرونه أشقياءُ

وهو هنا يشير إلى قوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1] ولقد كان احتفاء شوقى بعيسى عليه السلام . . احتفاء المسلم بأنبياء الله جميعًا وهو الذى لا يتم الإيمان إلا به . .

(١) سورة النساء - الآية : ١٥٨ .

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

شاعر العمال

ثم ها هو يدعو إلى العمل فى رفق وأناة . . وهى دعوة الإسلام . . إلى العمل . . ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

يقول شوقى :

أيها العمال أفنوا		العمر كدًا واكتسابا
واعمروا الأرض فَلَوْلاَ		سعيكم أمست خرابا
اتقنوا يحببكم الله		ويرفعكم جنابا
إن للمتقن عند الله		والناس ثوابا
أيها الغادون كالنحل		ارتيادا وطلابا
فى بكور الطير للـ		ـرزق مجيئًا وذهابا
اطلبوا الرزق برفق		واجعلوا الواجب دابا
واستقيموا يفتح اللـ		ـه لكم بابا فبابا
إنما العاقل من يجعل		للدهر حسابا

شاعر لا يبارى

وكانت لا تفوت شوقى مناسبة إلا كتب فيها . . فإذا كتب فلا يباريه أحد فيما يكتب . . يقول شوقى فى مناسبة الإسراء والمعراج :

يا أيها المسرى به شرفًا إلى		ما لا تنال الشمس والجوزاءُ
يتساءلون وأنت أطهر هيكلٍ		بالروح أم بالهيكل الإسراءُ
بهما سموت مطهرين كلاهما		نور وريحانية وبهاءُ

(١) سورة البقرة - الآية : ٢٨٥ .	(٢) سورة التوبة - الآية : ١٠٥ .

فـضل عليك لذى الجـلال ومنة والله يفـعـل مـا يرى ويشـاءُ
تغشى الغيـوب من العوالـم كلمـا طويت سـمـاء قلدتك سـماءُ
فى كل منطقـة حـواشى نـورها نـون وأنـت النـقـطة الـزهراءُ
أنت الجـمال بهـا وأنت المجـتلى والـكـف والمـرآة والحـسـناءُ
الله هيـأ من حظـيـرة قـدسـه نزلاً لـذاتك لـم تجـزه عـلاءُ
والعـرش تحتـك سـدة وقـوائمـا ومنـاكـب الـروح الأمين وطـاءُ
والرسل دون العـرش لم يـؤذن لهم حـاشـا لغـيـرك موعـد ولقـاءُ

أين التكريم ؟

هذا بعض ما قدمه شوقى ، فماذا قُدم لشوقى :

شارع من أقصر شوارع مصر . . لا يمتد إلى أكثر من بضع خطوات فى ضاحية الجيزة . . هو كل ما خلَّدنا به ذكر أعظم شاعر فى تاريخ مصر . . إنه شارع أحمد شوقى . .

هناك تقوم كرمة ابن هانئ . . على رأس الطريق . . مطلة بحدائقها ، ونوافذها ، وشرفاتها على صفحة النيل الخالد ، كأنها تسأله بلسان صاحبها :

من أى عـهـد فى القـرى تتـدفقُ وبـأى كـف فـى المدائـن تغـدقُ
ومن السـمـاء نزلت أم فـجـرت من عليـا الجنان جـداولا تـتـرقـرقُ

نعم لقد عاش شوقى يتطلع إلى الجنان ، ويتشفع برسول الله ﷺ ، ويتوسل بعرائس مدحه للنبى ﷺ ، ويتمنى أن يتقبلها رسول الله ﷺ منه . .

يا من لـه عـز الشـفـاعـة وحـده وهو المنزه مـا له شـفـعـاءُ
عـرش القـيـامة أنت تحت لوائه والحـوض أنت حيـالـه السقـاءُ
تروى وتـسـقى الصـالحين ثوابـهم والصـالحـات ذخـائر وجـزاءُ
لى فى مـديحـك يا رسـول عـرائسٌ تيـمن فـيـك وشـاقـهن جـلاءُ
هن الحـسـان فـإن قـبلـت تكرمًا فـمـهـورهن شـفـاعـةٌ حـسناءُ

غروب الشمس

وفى يوم ١٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٢ . . مال الشاعر أحمد شوقى كما تميل الشمس فى ضحاها . . وأسلم روحه الطاهرة إلى بارئها . . وهو يقول :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل ... فى الله يجعلنى فى خير معتصم
ألقى رجائى إذا عز المجير على ... مفرج الكرب فى الدارين والغمم
إذا خفضت جناح الذل أسأله ... عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة ... قدمت بين يديه عبرة الندم

ثم أوصى أن يكتب هذا البيت على قبره . . وهو اشتراكه مع رسول الله ﷺ فى اسم «أحمد» .

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى ... وكيف لا يتسامى بالرسول سمى
لزمت باب أمير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

* * *

الهمزية النبوية

ولد الهدى فالكائنات ضياءُ ... وفم الزمان تبسم وثناءُ
الروح والملأ الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراءُ
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى ... والمنتهى والسدرة العصماءُ
وحديقة الفرقان ضاحكة الربا ... بالترجمان ، شذية غناءُ
والوحى يقطر سلسلاً من سلسل ... واللوح والقلم البديع رواءُ
نظمت أسامى الرسل فهى صحيفة ... فى اللوح ، واسم محمد طغراءُ
اسم الجلالة فى بديع حروفه ... ألف هنالك ، واسم طه الباءُ

* * *

يا خير من جاء الوجود تحية ... من مرسلين إلى الهدى بك جاءوا
بيت النبيين الذى لا يلتقى ... إلا الحنائف فيه والحنفاءُ
خير الأبوة حازهم لك (آدم) ... دون الأنام ، وأحرزت حواءُ
هم أدركوا عز النبوة وانتهت ... فيها إليك العزة القعساءُ
خلقت لبيتك وهو مخلوق لها ... إن العظائم كفؤها العظماءُ
بك بشر الله السماء فزينت ... وتضوعت مسكًا بك الغبراءُ
وبدا محياك الذى قسماته ... حق وغرته هدى وحياءُ
وعليه من نور النبوة رونق ... ومن الخليل وهديه سيماءُ
أثنى المسيح عليه خلف سمائه ... وتهللت واهتزت العذراءُ
يوم يتيه على الزمان صباحه ... ومساؤه (بمحمد) وضاءُ
الحق عالى الركن فيه مظفر ... فى الملك لا يعلو عليه لواءُ
ذعرت عروش الظالمين ، فزلزلت ... وعلت على تيجانهم أصداءُ
والنار خاوية الجوانب حولهم ... خمدت ذوائبها وغاض الماءُ
والآى تترى والخوارق جمة ... (جبريل) رواح بها غداءُ
نعم اليتيم بدت مخايل فضله ... واليتم رزق بعضه وذكاءُ
فى المهد يستسقى الحيا برجائه ... وبقصده تستدفع البأساءُ
بسوى الأمانة فى الصبا والصدق لم ... يعرفه أهل الصدق والأمناءُ
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراءُ
لو لم تقم دينًا لقامت وحدها ... دينا تضىء بنوره الآناءُ
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماءُ
أما الجمال فأنت شمس سمائه ... وملاحة (الصديق) منك إياءُ
والحسن من كرم الوجوه ، وخيره ... ما أوتى القواد والزعماءُ
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواءُ

وإذا عفوت فقادراً ومقدراً | لا يستهين بعفوك الجهلاءُ
وإذا رحمت فأنت أم أو أبٌ | هذان فى الدنيا هما الرحماءُ
وإذا غضبت فإنما هى غضبةٌ | فى الحق لا ضغن ولا بغضاءُ
وإذا رضيت فذاك فى مرضاته | ورضى الكثير تحلم ورياءُ
وإذا خطبت فللمنابر هزةٌ | تعرو الندى وللقلوب بكاءُ
وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما | جاء الخصوم من السماء قضاءُ
وإذا حميت الماء لم يورد ولو | أن القياصر والملوك ظماءُ
وإذا أجرت فأنت بيت الله لم | يدخل عليه المستجير عداءُ
وإذا ملكت النفس قمت ببرها | ولو ان ما ملكت يداك الشاءُ
وإذا بنيت فخير زوج عشرة | وإذا ابتنيت فدونك الآباءُ
وإذا صحبت رأى الوفاء مجسمًا | فى بُردك الأصحاب والخلطاءُ
وإذا أخذت العهد أو أعطيته | فجميع عهدك ذمة ووفاءُ
وإذا مشيت إلى العدا فغضنفرٌ | وإذا جريت فإنك النكباءُ
وتمد حلمك للسفيه مداريًا | حتى يضيق بعرضك السفهاءُ
فى كل نفس من سطاك مهابةٌ | ولكل نفس فى نداك رجاءُ
والرأى لم ينض المهند دونه | كالسيف لم تضرب به الآراءُ

* * *

يا أيها الأمى ، حسبك رتبة | فى العلم أن دانت بك العلماءُ
الذكر آية ربك الكبرى التى | فيها لباغى المعجزات غناءُ
صدر البيان له إذا التقت اللغى | وتقدم البلغاء والفصحاءُ
نسخت به التوراة وهى وضيئة | وتخلف الإنجيل وهو ذكاءُ
لما تمشى فى (الحجاز) حكيمه | فضت (عكاظ) به وقام حراءُ
أزرى بمنطق أهله وبيانهم | وحى يقصر دونه البلغاءُ

حسدوا ، فقالوا : شاعر ، أو ساحر ومن الحسود يكون الاستهزاءُ
قد نال(بالهادى) الكريم و (بالهدى) ما لم تنل من سؤدد سيناءُ
أمسى كأنك من جلالك أمة وكأنه من أنسه بيداءُ
يوحى إليك النور فى ظلماته متتابعًا تُجْلَى به الظَلماءُ
دين يشيد آية فى آية لَبِنَاتُه السورات والأضواءُ
الحق فيه هو الأساس وكيف لا والله جل جلاله البناءُ ؟

* * *

أما حديثك فى العقول فمشرع والعلم والحكم الغوالى الماءُ
هو صبغة الفرقان ، نفحة قدسه والسين من سوراته والراءُ
جرت الفصاحة من ينابيع النهى من دَوحه ، وتفجر الإنشاءُ
فى بحره للسابحين به على أدب الحياة وعلمها إرساءُ
أتت الدهور على سلافته ، ولم تفن السلاف ، ولا سَلا الندماءُ

* * *

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراءُ
بنيت على التوحيد وهى حقيقة نادى بها سقراط والقدماءُ
وجد الزعاف من السموم لأجلها كالشهد ، ثم تتابع الشهداءُ
ومشى على وجه الزمان بنورها كُهَّان وادى النيل والعُرفاءُ
إيزيس ذات الملك حين توحدت أخذت قوام أمورها الأشياءُ
لما دعوت الناس لبى عاقل وأصم منك الجاهلين نداءُ
أبَوْا الخروج إليك من أوهامهم والناس فى أوهامهم سجناءُ
ومن العقول جداول وجلامدٌ ومن النفوس حرائر وإماءُ
داء الجماعة من ارسطاليس لم يوصف له حتى أتيت دواءُ
فرسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها ولا أمراءُ

الله فــوق الخلق فــيــهــا وحــده | والنـاس تحت لوائـهـا أكــفـــاءُ
والدين يــســر ، والخــلافــة بيـعــة | والأمـر شـورى ، والحـقـوق قـضـاءُ
الاشـتـراكـيــون أنت إمـامـهـم | لولا دعـــاوى الـقــــوم والغـلـواءُ
داويت مـــتــشـدداً ، وداووا طـفـرة | وأخـف مـن بـعـض الـدواء الـداءُ
الحــرب فـى حق لديك شــريـعــة | ومن الـســمــوم الناقــعـات دواءُ
والبــر عندك ذمـــة ، وفـريـضـــة | لا منة ممنونـة وجـــبـــاءُ
جـاءت فـوحـدت الزكـاة سـبيله | حـتـى التقى الكـرمـاء والبـخـلاءُ
أنصـفت أهل الفـقـر مـن أهل الغنى | فــالكـل فى حق الحـيــاة ســواءُ
فلـو ان إنســانًا تخـيـــر مـلة | مــا اخـــتـار إلا دينك الفـــقـــراءُ

* * *

يا أيـهـــا المسـرى بـه شـرفًا إلى | مــا لا تنـال الشـمـس والجـوزاءُ
يتـســاءلون وأنت أطهـر هـيكلٍ | بـالـروح أم بالـهـيكل الإســراءُ
بهـمـا سـموت مطهـرين كـلاهمـا | نـور وريـحـــانيـــة وبـهـــاءُ
فــضل عليك لذى الجــلال ومنة | والله يفـــعـــل مـــا يـرى ويشــاءُ
تغـشى الغـيـوب من العوالـم كلمـا | طويت ســمــاء قـلدتك ســمــاءُ
فى كـل منطقــة حــواشى نـورها | نـون وأنــت الـنـقـطـة الـزهـراءُ
أنت الجـمـــال بهـا وأنت المجـتـلى | والـكـف والمـرآة والحـــســـنـاءُ
الله هيَّــأ من حظـيـــرة قـــدســـه | نزلاً لـذاتك لـم يجـــزه عـــلاءُ
العـــرش تحــتـك سـدة وقـوائـمـا | ومنـاكـب الـروح الأمـين وطـاءُ
والرسل دون الـعـــرش لم يـؤذن لهم | حـاشـا لغـيـرك مـوعـد ولقـاءُ

* * *

الخـيل تأبـى غـيـر أحـمـد حـاميًا | وبهـا إذا ذكـر اسـمــه خـيـلاءُ
شـيـخ الـفـوارس يعلمـون مكانه | إن هيَّجت آسـادها الهـيـجـاءُ

وإذا تصدى للظبى فمهند   أو للرماح فصعدة سمراءُ
وإذا رمى عن قوسه فيمينه   قدر ، وما ترمى اليمين قضاءُ
من كل داعى الحق همة سيفه   فلسيفه فى الراسيات مضاءُ
ساقى الجريح ، ومطعم الأسرى ومن   أمنت سنابك خيله الأشلاءُ
إن الشجاعة فى الرجال غلاظة   ما لم تزنها رأفة وسخاءُ
والحرب من شرف الشعوب،فإن بغوا   فالمجد مما يدعون براءُ
والحرب يبعثها القوى تجبراً   وينوء تحت بلائها الضعفاءُ
كم من غزاة للرسول كريمة   فيها رضى للحق أو إعلاءُ
كانت لجند الله فيها شدة   فى إثرها للعالمين رخاءُ
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها   فعلى الجهالة والضلال عفاءُ
دعموا على الحرب السلام ، وطالما   حقنت دماء فى الزمان دماءُ

* * *

الحق عرض الله كل أبية   بين النفوس حمى له ووقاءُ
هل كان حول محمد من قومه   إلا صبى واحد ونساءُ ؟
فدعا ، فلبى فى القبائل عصبة   مستضعفون ، قلائل ، أنضاءُ
ردوا بيأس العزم عنه من الأذى   ما لا ترد الصخرة الصماءُ
والحق والإيمان إن صبا على   برد ففيه كتيبة خرساءُ
نسفوا بناء الشرك ، فهو خرائب   واستأصلوا الأصنام ، فهى هباءُ
يمشون تغضى الأرض منهم هيبة   وبهم حيال نعيمها إغضاءُ
حتى إذا فتحت لهم أطرافها   لم يطغهم ترف ولا نعماءُ

* * *

يا من له عز الشفاعة وحده   وهو المنزه ما له شفعاءُ
عرش القيامة أنت تحت لوائه   والحوض أنت حياله السقّاءُ

تروى وتسقى الصالحين ثوابهم والصالحات ذخائرٌ وجزاءُ
ألِمثل هذا ذقت فى الدنيا الطوى وانشق من خلق عليك رداءُ
لى فى مديحك يا رسول عرائس تُيِّمْنَ فيك وشاقهن جلاءُ
هن الحسان ، فإن قبلت تكرما فمهورهن شفاعة حسناءُ
أنت الذى نظم البرية دينه ماذا يقول وينظم الشعراءُ ؟
المصلحون أصابع جمعت يداً هى أنت ، بل أنت اليد البيضاءُ
ما جئت بابك مادحًا بل داعيًا ومن المديح تضرع ودعاءُ
أدعوك عن قومى الضعاف لأزمة فى مثلها يلقى عليك رجاءُ
أدرى رسول الله أن نفوسهم ركبت هواها ، والقلوب هواءُ
متفككون فما تضم نفوسهم ثقة ، ولا جمع القلوب صفاءُ
رقدوا ، وغرهم نعيم باطل ونعيم قوم فى القيود بلاءُ

* * *

ظلموا شريعتك التى نلنا بها ما لم ينل فى رومة الفقهاءُ
مشت الحضارة فى سناها واهتدى فى الدين والدنيا بها السعداءُ
صلى عليك الله ما صحب الدجى حادٍ ، وحنت بالفلا وجناءُ
واستقبل الرضوان فى غرفاتهم بجنانِ عدن آلك السمحاءُ
خير الوسائل ، من يقع منهم على سبب إليك فحسبى الزهراءُ

* * *

ذكرى المولد

سلوا قلبي غداة سلا وثابا ... لعل على الجمال له عتابا
ويسأل في الحوادث ذو صواب ... فهل ترك الجمال له صوابا ؟
وكنت إذا سألت القلب يومًا ... تولى الدمع عن قلبي الجوابا
ولي بين الضلوع دم ولحمٌ ... هما الواهي الذي ثكل الشبابا
تسرب في الدموع فقلت : ولى ... وصفق في الضلوع فقلت ثابا
ولو خلقت قلوب من حديد ... لما حملت كما حمل العذابا
وأحباب سقيت بهم سلافا ... وكان الوصل من قصر حبابا
ونادمنا الشباب على بساط ... من اللذات مختلف شرابا
وكل بساط عيش سوف يطوى ... وإن طال الزمان به وطابا
كأن القلب بعدهم غريبٌ ... إذا عادته ذكرى الأهل ذابا
ولا ينبيك عن خلق الليالي ... كمن فقد الأحبة والصحابا
أخا الدنيا أرى دنياك أفعى ... تبدل كل آونة إهابا
وأن الرقط أيقظ هاجعات ... وأترع في ظلال السلم نابا
ومن عجب تشيب عاشقيها ... وتفنيهم وما برحت كعابا
فمن يغتر بالدنيا فإني ... لبست بها فأبليت الثيابا
لها ضحك القيان إلى غبي ... ولي ضحك اللبيب إذا تغابى
جنيت بروضها وردا وشوكًا ... وذقت بكأسها شهدًا وصابا
فلم أر غير حكم الله حكمًا ... ولم أر دون باب الله بابا
ولا عظمت في الأشياء إلا ... صحيح العلم والأدب اللبابا
ولا كرمت إلا وجه حر ... يقلد قومه المنن الرغابا
ولم أر مثل جمع المال داء ... ولا مثل البخيل به مصابا
فلا تقتلك شهوته وزنها ... كما تزن الطعام أو الشرابا
وخذ لبنيك والأيام ذخرًا ... وأعط الله حصته احتسابا

فلو طالعت أحداث الليالى وجدت الفقر أقربها انتيابا
وأن البر خير فى حياة وأبقى بعد صاحبه ثوابا
وأن الشر يصرع فاعليه ولم أر خيِّراً بالشر آبا
فرفقاً بالبنين إذا الليالى على الأعقاب أوقعت العقابا
ولم يتقلدوا شكر اليتامى ولا ادرعوا الدعاء المستجابا
عجبت لمعشر صلوا وصاموا عواهر خشية ، وتقى كذابا
وتلفيهم حيال المال صمًا إذا داعى الزكاة بهم أهابا
لقد كتموا نصيب الله منه كأن الله لم يحصِ النصابا
ومن يعدل بحب الله شيئاً كحب المال ضل هوى وخابا
أراد الله بالفقراء براً وبالأيتام حباً وارتبابا
فرب صغير قوم علموه سما وحمى المسومة العرابا
وكان لقومه نفعاً وفخراً ولو تركوه كان أذى وعابا
فعلم ما استطعت لعل جيلاً سيأتى يحدث العجب العجابا
ولا ترهق شباب الحى يأساً فإن اليأس يخترم الشبابا
يريد الخالق الرزق اشتراكاً وإن يك خص أقواماً وحابى
فما حرم المجد جنى يديه ولا نسى الشقى ولا المصابا
ولولا البخل لم يهلك فريق على الأقدار تلقاهم غضابا
تعبت بأهله لوماً وقبلى دعاة البر قد سئموا الخطابا
ولو أنى خطبت على جماد فجرت به الينابيع العذابا
ألم تر للهواء جرى فأفضى إلى الأكواخ واخترق القبابا
وأن الشمس فى الآفاق تغشى حمى كسرى كما تغشى اليبابا
وأن الماء تروى الأسد منه ويشفى من تلعلعها الكلابا
وسوى الله بينكم المنايا ووسدكم مع الرسل الترابا
وأرسل عائلاً منكم يتيماً دنا من ذى الجلال فكان قابا

نبي البر بينه سبيلاً ... وسن خلاله وهدى الشعابا
تفرق بعد عيسى الناس فيه ... فلما جاء كان له متابا
وشافي النفس من نزغات شر ... كشاف من طبائعها الذئابا
وكان بيانه للهدى سبلاً ... وكانت خيله للحق غابا
وعلمنا بناء المجد حتى ... أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منالٌ ... إذا الإقدام كان لهم ركابا
تجلى مولد الهادي وعمت ... بشائره البوادي والقصابا
وأسدت للبرية (بنت وهب) ... يداً بيضاء طوقت الرقابا
لقد وضعته وهّاجاً مُنيراً ... كما تلد السموات الشهابا
فقام على سماء البيت نوراً ... يضيء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكاً ... وفاح القاع أرجاء وطابا
أبا الزهراء قد جاوزت قدري ... بمدحك بيد أن لي انتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيان ... إذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزدت قدراً ... فحين مدحتك اقتدت السحابا
سألت الله في أبناء ديني ... فإن تكن الوسيلة لي أجابا
وما للمسلمين سواك حصن ... إذا ما الضر مسهم ونابا
كأن النحس حين جرى عليهم ... أطار بكل مملكة غرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نوراً ... وكان من النحوس لهم حجابا
بنيت لهم من الأخلاق ركناً ... فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
وكان جنابهم فيها مهيباً ... وللأخلاق أجدر أن تهابا
فلولاها لساوى الليث ذئباً ... وساوى الصارم الماضي قرابا
فإن قرنت مكارمها بعلم ... تذللت العلا بهما صعابا
وفي هذا الزمان مسيح علم ... يرد على بني الأمم الشبابا

* * *

نهج البردة

ريم على القاع بين البان والعلم   أحلَّ سفك دمى فى الأشهر الحرمِ
رمى القضاء بعينى جؤذر أسداً   يا ساكن القاع ، أدرك ساكن الأجمِ
لما رنا حدثتنى النفس قائلة   يا ويح جنبك، بالسهم المصيب رمى
جحدتها ، وكتمت السهم فى كبدى   جرحُ الأحبة عندى غير ذى ألمِ
رزقت أسمح ما فى الناس من خلق   إذا رزقت التماس العذر فى الشيمِ
يا لائمى فى هواه .. والهوى قدر   لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلمِ
لقد أنلتك أذنا غير واعية   ورب منتصت والقلب فى صممِ
يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبداً   أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنمِ
أفديك [illegible] ، ولا آلو الخيال فدى   أغراك بالبخل من أغراه بالكرمِ
سرى ، فصادف جرحاً دامياً ، فأسا   ورب فضل على العشاق للحلمِ
من الموائس باناً بالربى وقنا   اللاعبات بروحى، السافحات دمى؟
السافرات كأمثال البدور ضحى   يغرن شمس الضحى بالحلى والعصمِ
القاتلات بأجفان بها سقم   وللمنية أسباب من السقمِ
العاثرات بألباب الرجال ، وما   أقلن من عثرات الدل فى الرسمِ
المضرمات خدوداً ، أسفرت ، وجلت   عن فتنة ، تسلم الأكباد للضرمِ
الحاملات لواء الحسن مختلفاً   أشكاله ، وهو فرد غير منقسمِ
من كل بيضاء أو سمراء زينتا   للعين والحسن فى الآرام كالعصمِ
يُرعن للبصر السامى ، ومن عجب   إذا أشرن أسرن الليث بالغنمِ
وضعت خدى وقسمت الفؤاد ربى   يرتعن فى كنس منه وفى أكمِ
يا بنت ذى اللبد المحمى جانبه   ألقاك فى الغاب ، أم ألقاك فى الأطمِ؟
ما كنت أعلم حتى عنَّ مسكنه   أن المنى والمنايا مضرب الخيمِ
من أنبت الغصن من صمصامة ذكرٍ ؟   وأخرج الريم من ضرغامة قرمِ
بينى وبينك من سمر القنا حجب   ومثلها عفة عذرية العصمِ

لم أغش مغناك إلا فى غضون كرى ... مغناك أبعد للمشتاق من إرمِ
يا نفس ، دنياك تخفى كل مبكية ... وإن بدا لك منها حسن مبتسمِ
فضى بتقواك فاها كلما ضحكت ... كما يفض أذى الرقشاء بالثرمِ
مخطوبة - منذ كان الناس - خاطبة ... من أول الدهر لم ترمل ، ولم تئمِ
يفنى الزمان ، ويبقى من إساءتها ... جرح بآدم يبكى منه فى الأدمِ
لا تحفلى بجناها ، أو جنايتها ... الموت بالزهر مثل الموت بالفحمِ
كم نائم لا يراها وهى ساهرة ... لولا الأمانى والأحلام لم ينمِ
طوراً تمدك فى نعمي وعافية ... وتارة فى قرار البؤس والوصمِ
كم ضللتك ومن تحجب بصيرته ... إن يلق صاباً يرد ، أو علقماً يسمِ
ويا ويلتاه لنفسى ! راعها ودها ... مسودة الصحف فى مبيضة اللممِ
ركضتها فى مريع المعصيات ، وما ... أخذت من حمية الطاعات للتخمِ
هامت عل أثر اللذات تطلبها ... والنفس إن يدعها داعى الصبا تهمِ
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تستقمِ
والنفس من خيرها فى خير عافية ... والنفس من شرها فى مرتع وخمِ
تطغى إذا مكنت من لذة وهوى ... طغى الجياد إذا عضت على الشكمِ
إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل ... فى الله يجعلنى فى خير معتصمِ
ألقى رجائى إذا عز المجير على ... مفرج الكرب فى الدارين والغممِ
إذا خفضت جناح الذل أسأله ... عز الشفاعة لم أسأل سوى أممِ
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة ... قدمت بين يديه عبرة الندمِ
لزمت باب أمير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنمِ
فكل فضل وإحسان وعارفة ... ما بين مستلم منه وملتزمِ
علقت من مدحه حبلاً أعز به ... فى يوم لاعز بالأنساب واللحمِ
يزرى قريضى زهيراً حين أمدحه ... ولا يقاس إلى جودى لدى هرمِ

* * *

محـمد صفـوة البارى ورحمـته ... وبغيـة الله من خلق ومن نسم
وصاحب الحوض يوم الرسل سائلة ... متى الورود ؟ وجبريل الأمين ظمى
سناؤه وسناه الشمس طالعة ... فالجِرمُ فى فلك ، والضوء فى علم
قد أخطأ النجم ما نالت أبوته ... من سؤدد باذخ فى مظهر سنم
نموا إليه فزادوا فى الورى شرفاً ... ورب أصل لفرع فى الفخار نمى
حواه فى سبحات الطهر قبلهم ... نوران قاما مقام الصلب والرحم
لما رآه بحيرا قال : نعرفه ... بما حفظنا من الأسماء والسيم
سائل حراء،وروح القدس:هل علما ... مصون سر عن الإدراك منكتم ؟
كم جيئة وذهاب شرفت بهما ... بطحاء مكة فى الإصباح والغسم
ووحشة لابن عبد الله بينهما ... أشهى من الأنس بالأحباب والحشم
يسامر الوحى فيها قبل مهبطه ... ومن يبشر بسيمى الخير يتسم
لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ ... فاضت يداه من التسنيم بالسنم
وظللته ، فصارت تستظل به ... غمامة جذبتها خيرة الديم
محبة لرسول الله أشربها ... قعائد الدير ، والرهبان فى القمم
إن الشمائل إن رقت يكاد بها ... يغرى الجماد ، ويغرى كل ذى نسم
ونودى : اقرأ . تعالى الله قائلها ... لم تتصل قبل من قيلت له بفم
هناك أذن للرحمن ، فامتلأت ... أسماع مكة من قدسية النغم
فلا تسل عن قريش كيف حيرتها؟ ... وكيف نفرتها فى السهل والعلم ؟
تساءلوا عن عظيم قد ألم بهم ... رمى المشايخ والولدان باللمم
يا جاهلين على الهادى ودعوته ... هل تجهلون مكان الصادق العلم ؟
لقبتموه أمين القوم فى صغر ... وما الأمين على قول بمتهم
فاق البدور وفاق الأنبياء فكم ... بالخُلق والخَلق من حسن ومن عظم
جاء النبيون بالآيات ، فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جددٌ ... يزينهن جمال العتق والقدم

يكاد فى لفظة منه مشرفة ... يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم
يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة ... حديثك الشهد عند الذائق الفهم
حليت من عطل جيد البيان به ... فى كل منتثر فى حسن منتظم
بكل قول كريم أنت قائله ... تحيى القلوب ، وتحيى ميت الهمم
سرت بشائر بالهادى ومولده ... فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم
تخطفت مهج الطاغين من عرب ... وطيرت أنفس الباغين من عجم
ريعت لها شُرف الإيوان،فانصدعت ... من صدمة الحق ، لا من صدمة القدم
أتيت والناس فوضى لا تمر بهم ... إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جوراً ، مسخرةٌ ... لكل طاغية فى الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغى فى رعيته ... وقيصر الروم من كِبر أصم عم
يعذبان عباد الله فى شبه ... ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليث بالبهم ، أو كالحوت بالبلم
أسرى بك الله ليلا ، إذ ملائكه ... والرسل فى المسجد الأقصى على قدم
لما خطرت به التفوا بسيدهم ... كالشهب بالبدر ، أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كل ذى خطر ... ومن يفز بحبيب الله يأتمم
جُبت السموات أو ما فوقهن بهم ... على منورة درية اللجم
ركوبة لك من عز ومن شرف ... لا فى الجياد ، ولا فى الأينق الرسم
مشيئة الخالق البارى ، وصنعته ... وقدرة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سماء لا يطار لها ... على جناح ولا يسعى على قدم
وقيل : كل نبى عند رتبته ... ويا محمد ، هذا العرش فاستلم
خططت للدين والدنيا علومهما ... يا قارئ اللوح ، بل يا لامس القلم
أحطت بينهما بالسر وانكشفت ... لك الخزائن من علم ومن حكم
وضاعف القرب ما قلدت من منن ... بلا عداد ، وما طوقت من نعم
سل عصبة الشرك حول الغار سائمة ... لولا مطاردة المختار لم تسم

هل أبصروا الأثر الوضاء ، أو سمعوا — همس التسابيح والقرآن من أمم ؟
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم — كالغاب والحائمات الزغب كالرخم؟
فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم — كباطل من جلال الحق منهزم
لولا يد الله بالجارين ما سلما — و عينه حول ركن الدين ، لم يقم
تواريا بجناح الله واستترا — ومن يضم جناح الله لا يضم
يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى — وكيف لا يتسامى بالرسول سمى؟
المادحون وأرباب الهوى تبع — لصاحب البردة الفيحاء فى القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى — وصادق الحب يملى صادق الكلم
اللّه يشهد أنى لا أعارضه — من ذا يعارض صوب العارض العرم؟
وإنما أنا بعض الغابطين ، ومن — يغبط وليك لا يذمم ، ولا يلم
هذا مقامٌ من الرحمن مقتبسٌ — ترمى مهابته سحبان بالبكم
البدر دونك فى حسن وفى شرف — والبحر دونك فى خير وفى كرم
شم الجبال إذا طاولتها انخفضت — والأنجم الزهر ما واسمتها تسم
والليث دونك بأساً عند وثبته — إذا مشيت إلى شاكى السلاح كمى
تهفو إليك وإن أدميت حبتها — فى الحرب أفئدة الأبطال والبهم
محبة الله ألقاها ، وهيبته — على ابن آمنة فى كل مصطدم
كأن وجهك تحت النقع بدر دجى — يضىء ملتثما ، أو غير ملتثم
بدر تطلع فى بدر ، فغرته — كغرة النصر ، تجلو داجى الظلم
ذكرت باليتم فى القرآن تكرمة — وقيمة اللؤلؤ المكنون فى اليتم
الله قسم بين الناس رزقهم — وأنت خيرت فى الأرزاق والقسم
إن قلت فى الأمر : «لا» أو قلت فيه «نعم» — فخيرة الله فى « لا » منك أو نعم
أخوك عيسى دعا ميتًا فقام له — وأنت أحييت أجيالاً من الرمم
والجهل موت ، فإن أوتيت معجزة — فابعث من الجهل،أو فابعث من الرجم
قالوا : غزوت ، ورسل الله ما بعثوا — لقتل نفس ، ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام ، وسفسطة … فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذى حسب … تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به … ذرعًا ، وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء : كم شربت … بالصاب من شهوات الظالم الغلم
طريدة الشرك ، يؤذيها ، ويوسعها … فى كل حين قتالا ساطع الحدم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها … بالسيف ، ما انتفعت بالرفق والرحم
لولا مكان لعيسى عند مرسله … وحرمة وجبت للروح فى القدم
لسُمِّرَ البدن الطهر الشريف على … لوحين ، لم يخش مؤذيه ، ولم يجم
جل المسيح ، وذاق الصلبُ شانئه … إن العقاب بقدر الذنب والجرم
أخو النبى ، وروح الله فى نزلٍ … فوق السماء ودون العرش محترم
علمتهم كل شىء يجهلون به … حتى القتال وما فيه من الذمم
دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم … والحرب أس نظام الكون والأمم
لولاه لم نر للدولات فى زمن … ما طال من عمد ، أو قر من دهم
تلك الشواهد تترى كل آونة … فى الأعصر الغر ، لا فى الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروش ، واعتلت سررٌ … لولا القذائف لم تثلم ، ولم تصم
أشياع عيسى أعدوا كل قاصمة … ولم نعد سوى حالات منقصم
مهما دعيت إلى الهيجاء قمت لها … ترمى بأسْدٍ ويرمى الله بالرجم
على لوائك منهم كل منتقم … لله ، مستقتل فى الله ، معتزم
مسبح للقاء الله ، مضطرم … شوقًا ، على سابح كالبرق مضطرم
لو صادف الدهر يبغى نقلة ، فرمى … بعزمه فى رحال الدهر لم يرم
بيض ، مفاليل من فعل الحروب بهم … من أسيف الله ، لا الهندية الخذم
كم فى التراب إذا فتشت عن رجل … من مات بالعهد ، أو من مات بالقسم
لولا مواهب فى بعض الأنام لما … تفاوت الناس فى الأقدار والقيم
شريعة لك فجرت العقول بها … عن زاخر بصنوف العلم ملتطم

يلوح حول سنا التوحيد جوهرها ... كالحلى للسيف أو كالوشى للعلم
غراء ، حامت عليها أنفس ، ونهى ... ومن يجد سلسلا من حكمة يحم
نور السبيل يساس العالمون بها ... تكفلت بشباب الدهر والهرم
يجرى الزمان وأحكام الزمان على ... حكم لها ، نافذ فى الخلق ، مرتسم
لما علت دولة الإسلام واتسعت ... مشت ممالكه فى نورها التمم
وعلمت أمة بالقفر نازلة ... رعى القياصر بعد الشاء والنعم
كم شيد المصلحون العاملون بها ... فى الشرق والغرب ملكًا باذخ العظم
للعلم ، والعدل ، والتمدين ما عزموا ... من الأمور وما شدوا من الحزم
سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم ... وأنهلوا الناس من سلسالها الشبم
ساروا عليها هداة الناس ، فهى بهم ... إلى الفلاح طريق واضح العظم
لا يهدم الدهر ركنًا شاد عدلهم ... وحائط البغى إن تلمسه ينهدم
نالوا السعادة فى الدارين واجتمعوا ... على عميم من الرضوان مقتسم
دع عنك روما ، وآثينا ، وما حوتا ... كل اليواقيت فى بغداد والتوم
وخل كسرى ، وإيوانا يدل به ... هوى على أثر النيران والأيم
واترك «رعمسيس» إن الملك مظهره ... فى نهضة العدل ، لا فى نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت ... دار السلام لها ألقت يد السلم
ما ضارعتها بيانًا عند ملتأم ... ولا حكتها قضاء عند مختصم
ولا احتوت فى طراز من قياصرها ... على رشيد ، ومأمون ، ومعتصم
من الذين إذا صارت كتائبهم ... تصرفوا بحدود الأرض والتخم
ويجلسون إلى علم ومعرفة ... فلا يدانون فى عقل ولا فهم
يطأطئ العلماء الهام إن نسبوا ... من هيبة العلم لا من هيبة الحكم
ويمطرون فما بالأرض من محل ... ولا بمن بات فوق الأرض من عدم
خلائف الله جلوا عن موازنة ... فلا تقيسن أملاك الورى بهم
من فى البرية كالفاروق معدلة ؟ ... وكابن عبد العزيز الخاشع الحشم؟
وكالإمام إذا ما فض مزدحمًا ... بمدمع فى مآقى القوم مزدحم

الزاخــر العــذب فى علـم وفى أدب   والناصر الندب فى حرب وفى سلم؟
أو كـابـن عـفـان والقـرآن فـى يده   يحنو عليـه كـمـا تحنو على الـفطم
ويجـمـع الآى ترتيـبـاً وينظمـهـا   عـقـداً بجيـد الليـالى غـيـر منفـصم؟
جـرحـان فى كـبـد الإسـلام مـا التأما   جـرح الشـهيـد ، وجـرح بالكتـاب دمى
ومـــا بلاء أبـى بكـر بمتـــهـم   بعـد الجـلائل فى الأفـعـال والخـدم
بالحـزم والـعـزم حـاط الدين فـى محن   أضلت الحـلم من كـهل ومـحـتلم
وحـدن بالراشـد الـفـاروق عن رشـد   فى المـوت ، وهو يـقـين غـيـر منبـهم
يجـادل القــوم مـســتـلاً مـهنده   فى أعظم الرسل قـدراً ، كـيف لم يدم؟
لا تـعــــذلوه إذا طـاف الـذهول بـه   مـات الحـبـيب ، فـضل الصب عن رغم

* * *

يا رب صـل وسلـم مـــا أردت على   نزيل عــرشك خـيـــر الرسل كـلهم
مـحـيى الليـالـى صـلاة ، لا يقطعـهـا   إلا بدمـع من الإشـفـــاق منســجم
مـسـبـحـاً لك جنح الليل مـحـتـمـلاً   ضـراً من الـسـهـد ، أو ضــراً من الورم
رضـيــة نفـسـه ، لا تشـتكى سـأماً   ومـا مع الحب إن أخلـصت من سـأم
وصــل ربـى عـلـى آل لـه نـخـب   جـعـلـت فـيـهم لواء البـيـت والحـرم
بيض الوجــوه، ووجـه الـدهر ذو حلك   شـم الأنوف ، وأنف الحـادثات حـمى
وأهد خـيــر صـــلاة منك أربعـة   فى الصـحب ، صحبـتهم مـرعيـة الحرم
الـراكـبـين إذا نـادى الـنـبـى بـهـم   مـا هال من جلل ، واشـتـد من عـمم
الصـــابرين ونـفس الأرض واجـفـة   الضــاحكـين إلى الأخطـار والقــحم
يا رب ، هبت شـعـوب من منيـتـهـا   واسـتـيـقظت أمم من رقــدة العــدم
سـعـد ، ونحـس ، وملك أنت مـالكه   تديـل من نـعم فـيـــه ، ومن نـقم
رأى قـضـاؤك فـينـا رأى حكمـتـه   أكـرم بوجــهك من قـاض ومـنتـقم
فـالـطف لأجل رســول العـالمين بنا   ولا تزد قـومـه خـســفـاً ، ولا تسم
يـا رب أحــسـنت بـدء المسـلمين بـه   فـتـمم الفضـل ، وامنح حـسن مختـتم

* * *

إلى عرفات الله

إلى عرفات الله يا خير زائر
عليك سلام الله فى عرفات

ويوم تولى وجهة البيت ناضراً
وسيم مجالى البشر والقسمات

على كل أفق بالحجاز ملائك
تزف تحايا الله والبركات

إذا حديت عيس الملوك ، فإنهم
لعيسك فى البيداء خير حداة

لدى (الباب) جبريل الأمين براحه
رسائل رحمانية النفحات

وفى الكعبة الغراء ركن مرحبٌ
بكعبة قصاد ، وركن عفاة

وما سكب الميزاب ماء وإنما
أفاض عليك الأجر والرحمات

و «زمزم» تجرى بين عينيك أعينًا
من الكوثر المعسول منفجرات

ويرمون إبليس الرجيم فيصطلى
وشانيك نيرانا من الجمرات

يحييك (طه) فى مضاجع طهره
ويعلم ما عالجت من عقبات

ويثنى عليك (الراشدون) بصالح
ورب ثناء من لسان رفات

لك الدين يا رب الحجيج جمعتهم
لبيت طهور الساح والعرصات

أرى الناس أصنافًا ومن كل بقعة
إليك انتهوا من غربة وشتات

تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت
لديك ولا الأقدار مختلفات

عنت لك فى الترب المقدس جبهة
يدين لها العاتى من الجبهات

منورة كالبدر ، شماء كالسها
وتخفض فى حق ، وعند صلاة

ويا رب ، لو سخرت ناقة (صالح)
لعبدك ، ما كانت من السلسات

ويا رب ، هل سيارة أو مطارة
فيدنو بعيد البيد والفلوات؟

ويا رب هل تغنى عن العبد حجةٌ
وفى العمر ما فيه من الهفوات ؟

وتشهد ما آذيت نفساً ، ولم أضر
ولم أبغ فى جهرى ، ولا خطراتى

ولا غلبتنى شقوة أو سعادة
على حكمة آتيتنى وأناة

ولا جال إلا الخير بين سرائرى
لدى سدة خيرية الرغبات

ولا بت إلا كابن مريم مشفقًا على حسدى ، مستغفرًا لعداتى
ولا حملت نفس هوى لبلادها كنفسى ، فى فعلى وفى نفثاتى
وإنى - ولا مَنٌّ عليك بطاعة أُجلُّ ، وأغلى فى الفروض زكاتى
أبالغ فيها وهى عدل ورحمة ويتركها النساك فى الخلوات
وأنت ولى العفو فامح بناصع من الصفح ما سودت من صفحات
ومن تضحك الدنيا إليه فيغترر يمت كقتيل الغيد بالبسمات
يسير بأرض أخرجت خير أمة وتحت سماء الوحى والسورات
يفيض عليها اليمن فى غدواته ويضفى عليها الأمن فى الروحات

* * *

إذا زرت بعد البيت قبر محمد وقبلت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت مع الدمع العيون مهابة لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية وضاع أريج تحت كل حصاة
لمظهر دين الله فوق تنوفة وبانى صروح المجد فوق فلاة
فقل لرسول الله : يا خير مرسل أبثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق سبات
بأيمانهم نوران : ذكرٌ وسنةٌ فما بالهم فى حالك الظلمات ؟
وذلك ماضى مجدهم وفخارهم فما ضرهم لو يعملون لآتى ؟
وهذا زمان ، أرضه وسماؤه مجال لمقدام كبير حياة
مشى فيه قوم فى السماء ، وأنشئوا بوارج فى الأبراج ممتنعات
فقل : رب وفق للعظائم أمتى وزين لها الأفعال والعزمات

* * *



يا رافعًا راية الشورى وحارسها * جزاك ربك خيرًا عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها * وللمنية آلام تعانيها
فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها * طعم المنية مرًا عن مراميها
وما استبد برأى فى حكومته * إن الحكومة تغرى مستبديها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به * رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

«حافظ إبراهيم»

إنه «حافظ إبراهيم» شاعر النيل، وسبب تسميته بشاعر النيل . . أنه وُلد على ماء النيل بعائمة فى بلدة ديروط، بمحافظة أسيوط . . فى اليوم الرابع من فبراير سنة ١٨٧٢ وكان حافظ إبراهيم مقطوعًا من شجرة سوداء كما يقولون، مات أبوه، وماتت أمه، فكفله خاله . . ثم ضاق بمقامه وطعامه، فخرج حافظ من البيت وقد ترك لخاله هذين البيتين من الشعر :

ثقلت عليك مؤنتى ... إنى أراها واهية
فافرح فإنى ذاهب ... متوجه فى داهية

وقد لمعت مواهب حافظ الأدبية منذ حداثته، ومارس المحاماة وهو دون العشرين من عمره، ثم التحق بالمدرسة الحربية، ليحمل السيف ليذود به عن حياض الوطن، وسرعان ما أصبح الضابط الشاب : **محمد حافظ إبراهيم فى طليعة الضباط الأحرار** وكان عددهم ثمانية عشر ضابطًا أرادوا أن يثبوا على الاستعمار الإنجليزى وأعوانه فى السودان، فتزعموا ثورة السودان، وأيدهم الخديو عباس فى السر دون الجهر، فلما أخفقت الثورة . . خذلهم الخديو وتخلى عنهم، وأحيل حافظ إلى الاستيداع، ثم إلى المعاش وهنا ذاق حافظ مرارة الجوع والحرمان . .

عمرية حافظ

وهذه القصيدة التى بين أيدينا . . والمسماة بعمرية حافظ . . هى باقة ورد . . لا أقول على قبره . . بل فى قبره . . وهى حسنة من حسناته، فقد تناول فيها **شخصية أعدل حاكم عرفه التاريخ** . . إنه عمر بن الخطاب الذى لا يذكر إلا ويذكر معه العدل، ولا يذكر العدل إلا ويذكر معه عمر . . إنه الحقيقة الأسطورية، والأسطورة الحقيقية . . والذى قال فيه رسول الله ﷺ :

« لو أن نبيًا بعدى لكان عمر »، « لو نزل عذاب من السماء ما نجا إلا عمر »، « أنت سراج أهل الجنة يا عمر »، « الشيطان يفر منك يا عمر » .

يستهل حافظ قصيدته العمرية بقوله :

حسب القوافى وحسبى حين ألقيها ... أنى إلى ساحة الفاروق أهديها
لا هم هب لى بيانا أستعين به ... على قضاء حقوق نام قاضيها[1]

(١) لا هم : أى اللهم .

قد نازعتنى نفسى أن أوفيها ... وليس فى طوق مثلى أن يوفيها
فمر سرى المعانى أن يواتينى ... فيها فإنى ضعيف الحال واهيها

شفافية وإلهام

ثم يشير الشاعر حافظ إبراهيم بعد ذلك . . إلى ما كان من عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وأرضاه حين كان يرى الرأى فينزل به القرآن ، حتى بلغت موافقاته نيفًا وعشرين آية منها آية التحريم فى الخمر عندما قال (رضى الله عنه) : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بيانًا شافيًا . . فنزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١) ... إلخ .

ومنها آية الاستئذان فى الدخول ، وذلك أنه دخل عليه غلامه ، وكان رضى الله عنه نائمًا فقال : اللهم حرم الدخول . . فنزلت آية الاستئذان . . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَئْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾(٢) ... إلخ .

يقول حافظ إبراهيم :

الحق على قلب عمر

رأيت فى الدين آراء موفقة ... فأنزل الله قرآناً يزكيها
وكنت أول من قرت بصحبته ... عين الحنيفة واجتازت أمانيها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها ... بنعمة الله حصنًا من أعاديها
خرجت تبغى أذاها فى محمدها ... وللحنيفة جبارٌ يواليها
فلم تكد تسمع الآيات بالغة ... حتى انكفأت تناوى من يناويها

وهو يشير هنا إلى السبب المباشر فى إسلام عمر . .

وذلك أنه قد خرج ذات يوم ليواصل أذاه للنبى ﷺ ، فلقيه نعيم بن عبد الله ، وأخبره

(١) سورة المائدة - الآية ٩٠ .
(٢) سورة النور - الآية ٥٨ .

بأن أخته قد أسلمت هى وزوجها سعيد بن زيد . . فاشتاط غضبًا ، وأسرع إليهما ، وكان عندهما خباب بن الأرت ومعه الصحيفة القرآنية يقرئهما (سورة طه) فلما اقترب عمر من البيت سمعهم . . وأحسوا به ، فاختفى خباب ، ودخل عمر فعثر على الصحيفة وقرأ ما فيها بعد أن ضرب أخته ضربًا مبرحًا . . ندم عليه بعد أن أتم قراءتها . . وأعجب بما فيها أيما إعجاب ، ولم يتركها حتى قدم إلى النبى ﷺ مشهراً إسلامه . .

يقول حافظ إبراهيم مصوراً هذا المعنى :

سمعت (سورة طه) من مرتلها ... فزلزلت نية قد كنت تنويها
وقلت فيها مقالاً لا يطاوله ... قول المحب الذى قد بات يطريها
ويوم أسلمت عز الحق وارتفعت ... عن كاهل الدين أثقال يعانيها
وصاح فيه بلال صيحة خشعت ... لها القلوب ولبت أمر باريها
فأنت فى زمن المختار منجدها ... وأنت فى زمن (الصدِّيق) منجيها
كم استراك رسول الله مغتبطًا ... بحكمة لك عند الرأى يلفيها

وعندما امتنع علىٌّ بن أبى طالب عن البيعة يوم السقيفة . . هدده عمر بتحريق بيته إذا استمر على امتناعه ، وكان فيه زوجه فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين بنت الرسول صلّى الله عليه وسلّم . .

يقول حافظ إبراهيم مصوراً هذا المعنى . .

وقولة لعلى قالها عمرٌ ... أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرقت دارك لا أبقى عليك بها ... إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ما كان غير أبى حفص يفوه بها ... أمام فارس عدنان وحاميها
كلاهما فى سبيل الحق عزمته ... لا تنثنى أو يكون الحق ثانيها
فاذكرهما وترحم كلما ذكروا ... أعاظمًا ألهوا فى الكون تأليها

عدل وقصاص

وكان « جبلة بن الأيهم » أحد أبناء الغساسنة ملوك الشام ، وكان قد اعتنق الإسلام . . وبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ أعرابى ثوبه ، فلطمه « جبلة » لطمة هشمت أنفه ، فشكا الأعرابى إلى عمر (رضى الله عنه) فأمر أن يقتص منه ، وأبى « جبلة » ذلك وهرب ، والتجأ إلى القسطنطينية ، وتنصر .

فصور هذا الموقف . . حافظ إبراهيم . . تصويرًا دقيقًا :

فتى غسان

كم خفت فى الله مضعوفًا دعاك به ... وكم أخفت قويًا ينثنى تيهًا
وفى حديث فتى غسان موعظة ... لكل ذى نعرة يأبى تناسيها
فما القوى قويًا رغم عزته ... عند الخصومة والفاروق قاضيها
وما الضعيف ضعيفًا بعد حجته ... وإن تخاصم واليها وراعيها

مشاركة الرعية

وكان عمر رضى الله عنه عدلاً يمشى على الأرض ، ورعًا متقشفًا ، فكانت إذا نزلت بالقوم مجاعة لا يأكل داخل بيته ، بل يأخذ طعامه ويشترك مع القوم إلى أن تنتهى المجاعة حتى يعلموا أن الخليفة لا يأكل من غير ما يأكلون . .

يقول حافظ إبراهيم :

إن جاع فى شدة قوم شركتهمو ... فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته ... فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته ... أو من يحاول للفاروق تشبيها

* * *

زوجه والحلوى

وحكى أن امرأته اشتهت الحلوى . . فادخرت لذلك من نفقة بيتها حتى جمعت ما يكفى لصنعها ، فلما نما هذا إلى عمر رد ما ادخرته إلى بيت المال ، ونقص من نفقتها بقدر ما ادخرت . . حتى لا تعود إليها ثانية . . وتكتفى بالكفاف .

يقول حافظ إبراهيم . . . مصوراً هذا المعنى . . فى أجمل تصوير . . وأروع تفسير . .

يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
لا تمتطى شهوات النفس جامحة ... فكسرة الخبز عن حلواك تجزيها
وهل يفى بيت مال المسلمين بما ... توحى إليك إذا طاوعت موحيها
قالت : لك الله إنى لست أرزؤه ... مالا لحاجة نفس كنت أبغيها
لكن أجنب شيئاً من وظيفتنا ... فى كل يوم على حال أسويها
حتى إذا ما ملكنا ما يكافئها ... شريتها ثم إنى لا أثنيها
قال اذهبى واعلمى إن كنت جاهلة ... أن القناعة تغنى نفس كاسيها
وأقبلَت بعد خمس وهى حاملة ... دريهمات لتقضى من تشهيها
فقال : نبهت منى غافلاً فدعى ... هذى الدراهم إذ لا حق لى فيها
ويلى على عمر يرضى بموفية ... على الكفاف وينهى مستزيديها
ما زاد عن قُوتنا فالمسلمون به ... أولى فقومى لبيت المال رديها
كذاك أخلاقه كانت وما عهدت ... بعد النبوة أخلاق تحاكيها

خوف من الله

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه كان يتفقد أحوال الرعية ذات ليلة فرأى امرأة توقد النار على حصى وماء تشغل بذلك أولادها الجوعى عن طلب الطعام حتى ناموا من شدة الجوع . . فحمل إليها عمر من بيت المال سمنًا ودقيقًا وعسلاً ، وجلس هو يشعل النار ويطهو الطعام بنفسه ، ولم ينصرف حتى أكل الأطفال وشبعوا وفرحوا وناموا .

يقول حافظ إبراهيم . . فى وصف بليغ . . وتعبير وجيز . .

ومن رآه أمــام القــدر منبطحــاً	والنار تأخذ منه وهو يزكيهـا
وقــد تخلل فى أثناء لحيتــه	منها الدخان وفُوه غاب فى فيها
رأى هناك أميــر المؤمنين على	حال تروع لعمــر الله رائيهـا
يستقبل النار خوف النار فى غده	والعين من خشية سالت مآقيها

اشتراكية عمـــر

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه . . مر يومًا بنوق وإبل قد بدت عليها آثار النعمة ، فسأل عن صاحبها . . فقيل له : إنها نوق وإبل عبد الله بن عمر فساقها إلى بيت مال المسلمين . . وهو يقول لولا جاهى لما قدر على إطعامها .

يقول حافظ إبراهيم . .

ومــا وقى ابنك عبـد الله أينقـه	لما اطلعت عليها فى مراعيها
رأيتهــا فى حمـاه وهى سارحة	مثل القصور قد اهتزت أعاليها
فقلت : ما كان عبد الله يشبعها	لو لم يكن ولدى أو كان يرويها
قد استعان بجاهى فى تجارته	وبات باسم أبى حفص ينميها
ردوا النيــاق لبيت المال إن له	حق الزيادة فيها قبل شاريها
وهذه خطة لله واضعهــا	ردت حقوقًا فأغنت مستميحيها
ما الاشتراكية المنشود جانبها	بين الورى غير مبنى من مبانيها
فإن نكن نحن أهليها ومنبتها	فإنهم عرفوها قبل أهليها

شــدة عمــر

ويروى أن رسـول الله ﷺ قـد خرج فى غـزوة من الغـزوات ، فنذرت جـارية من قـريش لئن رده الله سالمًا . . لتضرب بدفها . . وتغنى بين يديه فرحًا وابتهاجًا بعودته سالمًا . . فلما عاد رسول الله ﷺ . . جاءت الجارية لتفى بنذرها ، وضربت على الدف . . وكـان أبو بكر بجانبه . . لا ينكران عليها ذلك . . فلما طلع عليها عمر سقط الدف من يدها واضطربت فروَّح عنها رسول الله ﷺ ، وقال : مبتسمًا « لقد فرَّ شيطانها لما رأى عمر » .

يقول حافظ إبراهيم . . مصوراً هذا المعنى :

الشيطان يفر من عمر

أريت تـلك الـتى لله قـــد نـذرت ... أنشـــودة لـرســـول الله تهـديَهَــا
قــالت : نذرت لئن عــاد النبى لنا ... من غـــزوة لَعَــلَى دُفِّى أغنيــهــا
ويممت حـضرة الـهـادى وقد مـلأت ... أنوار طـلعـتـــه أرجـــاء ناديهــا
واستـأذنت ومشت بالدف وانـدفعت ... تشـجى بألحانهـا مـا شاء مشجيهـا
و المصطفى وأبـو بكر بجـــانبـــه ... لا ينكران عـليـهـا من أغـانيـهـا
حتى إذا لاح مـن بعـد لهـا عـمـر ... خـارت قـواها وَنَاد الخوف يرديها
وخـبـأت دفــهـا فـى ثوبهـا فـرقًا ... منـه وودت لو ان الأرض تطـويهـا
قـد كـان حلم رســول الله يؤنسـهـا ... فـجاء بطش أبى حفص يخـشـيهـا
فـقـال مـهـبط وحى الله مـبـتـسـماً ... وفى ابتسـامـتـه مـعنى يواسـيهـا
قـد فـرَّ شـيطانهـا لما رأى عــمـراً ... إن الشـياطين تخـشى بأس مـخزيهـا

عدلت فأمنت فنمت يا عمر

ويروى أنه لما وصـل رسول كسـرى إلى المدينة يريـد مقـابلة الخليفـة أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب . . جعل يستهدى إلى قصره ، فعلم أنه لا يسـكن قصـرًا . . وانتهى به المقـام إلى أن وصـل إلى ظل شـجرة كـان ينام تحتهـا عـمر بن الخطاب راقـدًا على التراب جـاعلاً منه وسـادة . . وأسند رأسـه إليـها . . ولم يكن حوله مـن مظاهر الحيـاة ما يميزه

عن أصغر فرد في رعيته . . فلما رأى الرجل ذلك دهش ووقف أمامه خاشعًا ، وقال عبارته المشهورة :

عدلت فأمنت فنمت يا عمر . .

يقول حافظ إبراهيم . .

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً ... بين الرعية عطلا وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها ... سوراً من الجند والحراس يحميها
رآه مستغرقاً في نومه فرأى ... فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً ... ببردة كاد طول الدهر يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلاً ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهمو ... فنمت نوم قرير العين هانيها

وبينما كان خالد بن الوليد يقود جيش المسلمين في فتح الشام ، إذ جاء البريد من المدينة ينعى أبا بكر الصديق رضي الله عنه . . ويخبر باستخلاف عمر بن الخطاب . . وكان في البريد مع هذا الخبر أمر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعزل قائد الجيش خالد بن الوليد . . وإسناد أمر القيادة العامة إلى أبي عبيدة بن الجراح ، فكتم أبو عبيدة الخبر عن خالد بن الوليد حتى تم النصر للمسلمين . . وكان وصول هذا الأمر والمسلمون على حصار دمشق . .

ويرجع سبب عزل خالد إلى أمرين :

أولهما : ما كان في نفس عمر بن الخطاب على خالد بن الوليد منذ قتل خالد مالك بن نويرة ، وزواجه بامرأته . . في حرب الردة . .

ثانيهما : إقبال جنود الجيش الإسلامي على خالد بن الوليد وحبهم له ، وتمسكهم به ، واستبسالهم بين يديه في شتى حروبه في العراق والشام ، وذلك ليمن طالعه في الحروب وشجاعته . . فقد كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يحارب باسمه . . فلا تكاد تسمع بمجيئه بلدة من البلاد إلا فرت إلى البلدة التي تليها . . فكان اسمه رعبًا في قلوب الأعداء .

وقد علم عمر بذلك ، فخشى من افتتان الناس به ، لهذا بادر بعزله قبل أن يصل خبر توليه الخلافة إلى المسلمين ، وخالد أمير على جيش عظيم منهم . . ولم يكتم عمر عن خالد سبب عزله له . . بل أظهره له . . فقال له قولته المشهورة بعد عزله :

« وما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن الناس بك ، فخفت أن تفتتن بالناس » وظل خالد حتى آخر أيامه مطيعًا لعمر ، وقبل موته أوصى عمر بأولاده . .

يقول حافظ إبراهيم :

سل قاهر الفرس والرومان هل شفعت ... له الفتوح وهل أغنى تواليها
غزى فأبلى وخيل الله قد عقدت ... باليمن والنصر والبشرى نواصيها
يرمى الأعادى بآراء مسددة ... وبالفوارس قد سالت مذاكيها
ما واقع الروم إلا فرَّ قارحها ... ولا رمى الفرس إلا طاش راميها
ولم يجز بلدة إلا سمعت بها ... الله أكبر تدوى فى نواحيها
عشرون موقعة مرت محجلة ... من بعد عشر بنان الفتح تحصيها
وخالد فى سبيل الله موقدها ... وخالد فى سبيل الله صاليها
أتاه أمر أبى حفص فقبَّله ... كما يُقَبِّلُ آى الله تاليها
واستقبل العزل فى إبان سطوته ... ومجده مستريح النفس هاديها
فاعجب لسيد مخزوم وفارسها ... يوم النزال إذا نادى مناديها
يقوده حبشى فى عمامته ... ولا تحرك مخزوم عواليها

ويريد « بالحبشى » بلال بن رباح ، وهو الذى نفذ أمر عمر فى خالد بأن يجره بعمامته حين استحيا « أبو عبيدة » من تنفيذه ، فهد بلال عمامة خالد ووضعها فى رقبته ، ثم رجعها إلى رأسه ثانية ، وقال : نطيع أمراءنا ، ونكرم سادتنا .

ألقى القياد إلى الجراح ممتثلاً ... وعزة النفس لم تجرح حواشيها
وانضم للجند يمشى تحت رايته ... وبالحياة إذا مالت يفديها
وما عرته شكوك فى خليفته ... ولا ارتضى إمرة الجراح تمويها
فخالد كان يدرى أن صاحبه ... قد وجه النفس نحو الله توجيها

فما يعالج من قول ولا عمل إلا أراد به للناس ترفيها
لذاك أوصى بأولاد له عمرا لما دعاه إلى الفردوس داعيها
وما نهى (عمر) فى يوم مصرعه نساء مخزوم أن تبكى بواكيها
وقيل : خالفت يا (فاروق) صاحبنا فيه وقد كان أعطى القوس باريها
فقال : خفت افتتان المسلمين به وفتنة النفس أعيت من يداويها
هبوه أخطأ فى تأويل مقصده وأنها سقطة فى عين ناعيها
فلن تعيب حصيف الرأى زلته حتى يعيب سيوف الهند نابيها
تالله لم يتبع فى (ابن الوليد) هوى ولا شفى غلة فى الصدر يطويها
لكنه قد رأى رأيًا فأتبعه عزيمة منه لم تُثلم مواضيها
لم يرع فى طاعة المولى خؤولته ولا رعى غيرها فيما ينافيها
وما أصاب ابنه والسوط يأخذه لديه من رأفة فى الحد يبديها
إن الذى برأ (الفاروق) نزهه عن النقائص والأغراض تنزيها
فذاك خلق من الفردوس طينته الله أودع فيها ما ينقيها
لا الكبر يسكنها ، لا الظلم يصحبها لا الحقد يعرفها ، لا الحرص يغويها

واضع دستور الشورى

وعمر بن الخطاب هو أول من وضع قاعدة الشورى وأرسى أركانها فى الإسلام ، وذلك فى اختيار خليفة المسلمين ، وكان رضى الله عنه يقول : لا خير فى أمر أُبرم من غير شورى ، فقد سئل عندما طعن عمن يوصى به بعده ، فقال للمقداد بن الأسود :

إذا وضعتمونى فى قبرى . . فأدخل عليًا ، وعثمان ، والزبير ، وسعدًا ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وطلحة إن قدم ، وأحضر عبد الله بن عمر ، ولا شىء له من الأمر ، وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف . . إن رغب عما اجتمع عليه المسلمون . . وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما بالسف . . إن رغبوا عما اجتمع عليه المسلمون ، فإن رضى ثلاثة رجال منهم . .

فحكموا عبد الله بن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه المسلمون .

راية الشورى

يا رافعًا راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيرًا عن محبيها
لم ينهك النزع عن تأييد دولتها ... وللمنية آلامًا تعانيها
لم أنس أمرك للمقداد يحمله ... إلى الجماعة إنذارًا وتنبيها
إن ظل بعد ثلاث رأيها شعبًا ... فجرد السيف واضرب فى هواديها
فاعجب لقوة نفس ليس يصرفها ... طعم المنية مرًا عن مراميها
درى عميد بنى الشورى بموضعها ... فعاش ما عاش يبنيها ويعليها
وما استبد برأى فى حكومته ... إن الحكومة تغرى مستبديها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

أما بعد . . .

فلقد آثرت أن أناقش حياة حافظ من خلال قصيدته الرائعة « العمرية المباركة » كما أسميها . . والتى تُعَد دُرَّة فريدة فى الأدب العربى . . وزهرة فيحاء فى حدائق الشعر . . تعطر ذكره بين الشعراء . . وترفع قدره بين الأدباء ،

وتزيد رصيده فى الدنيا . . وتجزل عطاءه فى الآخرة .

* * *



دينى الحنيف وربى الله * وشهادتى أن ليس إلا هُو
لا جاه لى إلا بطاعته * ولنعم عقبى الطاعةِ والجاهُ
أنا خاشع لجلال قدرته * متقلب الجنبين أوّاهُ
زَهَت القلوب بنور حكمته * وتعطرت بالذكر أفواهُ
أنا أُمَّة وحدى على سرف * فى حبه والناس أشباهُ
إن تاه غيرى بالزمان فلى * قلب بذكر الله تَيَّاهُ

«محمود سامى البارودى»

محمود سامى البارودى

سل مصر عنى إن جهلت مكانتى تخبرك عن شرف وعز أقدم
بلد نشأت من النبات بأرضها ولثمت ثغر غديرها المتبسم
فنسيمها روحى ومعدن تربها جسمى وكوثر نيلها محيا دمى
فإذا نطقت فالبثناء على الذى أولته من فضل علىَّ وأنعم
أهلى بها وأحبتى وكفى بهم فخراً ملكت به عِنان الأنجم
هى جنة الحسن التى زهراتها حور المها وهزار أيكتها فمى

ميلاده

ولد محمود سامى البارودى بمصر لأبوين من الجراكسة فى السابع والعشرين من شهر رجب ١٢٥٥ هجرية ١٨٣٩ ميلادية .

ولقد حرم البارودى العطف الأبوى منذ نعومة أظافره - مات أبوه وهو فى السابعة من عمره . . فكفله أهله . . وضموه إليهم .

ثم التحق بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة والترك ، وأبناء الطبقة الحاكمة وتخرج من المدرسة الحربية سنة ١٢٧١ هـ - ١٨٥٤م .

ولقد رضى البارودى عن شعره منذ أن قاله . . إذ رآه صورة نفسه وما تصبو إليه من مجد . . إلا أنه رأى الجو المحيط به لا يتسع لتحليقه وطموحه ، لذلك سافر إلى الأستانة وتعلم اللغتين ، التركية والفارسية . . وعكف على آدابهما ، وقال بالتركية والفارسية . . كما قال من قبل بالعربية . .

وطوال السنين التى قضاها على شواطئ البسفور عكف يقرأ دواوين الشعراء الأمويين والعباسيين والسابقين . .

وعاد البارودى مع إسماعيل إلى مصر فى الرابعة والعشرين من عمره . . يبدأ صفحة جديدة من حياته ، بعد أن ألحقه إسماعيل بحاشيته عندما توسم فيه النجابة والطموح . .

ولقد تحركت نفس البارودى لقول الشعر منذ نعومة أظفاره ، والقصيدة التى رثى بها أباه وهو فى سن مبكرة تصدح بميلاد شاعر عظيم .

يقول البارودى فى رثاء أبيه :

**لا فارس اليوم يحمى السرح بالوادى		طاح الردى بشهاب الحرب والنادى**
**مات الذى ترهب الأقران صولته		ويتقى بأسه الضرغامة العادى**
**مضى وخلفنى فى سن سابعة		لا يرهب الخصم إبراقى وإرعادى**
**إذا تلفت لم ألمح أخا ثقة		يأوى إلىّ ولا يسعى لإنجادى**
**فإن أكن عشت فرداً بين آصرتى		فها أنا اليوم فرد بين أندادى**

باعث الشعر فى العصر الحديث

ولقد قفز البارودى فسما إلى مكان الفحول من الشعراء الأولين فأثار عجب الناس وإعجابهم وكيف لا وهو الشاعر الشاب الملهم الذى أيقظ الشعر من نوم عميق . . ومهد السبيل من بعده لشوقى وحافظ وإسماعيل صبرى ، ومن سار سيرتهم ، ونهج نهجهم ، واتبع طريقهم فى بساتين الأدب العربى ، وفى حدائق الشعر الفيحاء . .

ميراث الأدب

ولقد جعل البارودى الشعر نسبًا وصهراً متصلاً بينه وبين خاله وجده . . وميراثًا امتد إليه منهما . . وكما أرادت له أمه . . أن يأخذ من جده وخاله . . الفروسية والشعر لترى فيه الصورة الكاملة فى جده . . والصورة المثلى فى خاله . . فقال قصيدته التى يفخر فيها بنفسه وأهله . . جده ، وخاله :

**أنا فى الشعر عريق		لم أرثه عن كلاله**
**كان إبراهيم خالى		فيه مشهور المقاله**
**وسما جدى علىّ		يطلب النجم فناله**
**فهو لى إرث كريم		سوف يبقى فى السلاله**

شطر المنى

ولقد حقق البارودى شطر المنى بعد أن أصبح فارسًا شاكى السلاح ، وقائدًا ترهب الأقران صولته ، وظل الشطر الثانى يضغط على عواطفه وأخلاقه .

فظل يلهج بذلك فى عالم خياله راجيًا أن يستكمل مناه فيقول :

أمانى

فمن لى والأمانى كاذبات ... بيوم فى الكريهة أو دنان
ألاعب فيه أطراف العوالى ... وأطلق بين هبوته حصانى
ترانى فيه أول كل داعٍ ... ويرتفع الغبار فلا ترانى

الشطر الثانى

وبعد ذلك ، وبعد أن نال ما تمنى . . يفتخر بنفسه شاعرًا ، وفارسًا ، ولا عجب فى هذا وهو رب السيف والقلم ، ونار على علم . .

أنا مصدر الكلم النوادى ... بين الحواضر والبوادى
أنا فارس أنا شاعر ... فى كل ملحمة ونادى
فإذا ركبت فإننى ... زيد الفوارس فى الجلاد
وإذا نطقت فإننى ... «قس بن ساعدة الإيادى»
هذا وذلك ديدنى ... فى كل معضلة نآد

والبارودى فخور بنفسه ، فخور بمجده القديم والحديث . . يدوى به فى سمع الزمان ويلوح به فى وجه الدنيا . .

يقول عن نفسه مفاخرًا . .

من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها فى حواشى كل داجية فجرُ
إذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت الدهرُ

رب السيف والقلم

والبارودى هو رب السيف والقلم ، ونار على علم ، فإلى جانب أنه فارس الأشعار . . فهو أيضًا فارس مغوار ، لا ينشق له غبار . . سياسى من الطراز الأول . . حكيم من الحكماء . .

يقول البارودى السياسى الحكيم . . الشاعر . . الفارس . . معلمًا وموجهًا ، ومرشدًا فى أبيات من الحكمة السياسية :

أمران ما اجتمعا لقائد أمة — إلا جنى بهما ثمار السؤددِ
جمع يكون الأمر فيما بينهم — شورى وجند للعدو بمرصدِ
فالسيف لا يمضى بدون روية — والرأى لا يمضى بغير مهندِ
هى عصمة الدين التى أوصى بها — رب العباد إلى النبى « محمدِ »

شاعر الحب والغزل

والبارودى شاعر رقيق ، محب أنيق ، أصيل عريق ، ينطق بوجدانه قبل لسانه ، وبلسانه بعد جنانه . .

يقول البارودى :

عليل أنت مسقمه — فما لك لا تكلمه
سرى فيه الضنى حتى — بدت للعين أعظمه
فلا إن باح تعذره — ولا إن ناح ترحمه
ودمعى أنت مرسله — وقلبى أنت مؤلمه
ولا والله ما لى فى الـ — ـهوى ذنب فأعلمه

زهرة العمر

ثم يقول البارودى فى زهرة حياته . . ورونق ذاته . . أزهارًا تفوح شذى على قارئها وسامعها :

هيفاء مال بها النعيم فخطوها — دون القطاة ونطقها إيماءُ
ترنو بأحورَ لو تمكن لحظه — من صخرة لا رفض منها الماءُ
حكم الجمال لها بما تختاره — فتحكمت فى الناس كيف تشاءُ

هذا وقد غنى بالشعر ملوك وأمراء وفرسان . . فكم من شعراء ملوك . . وكم من ملوك شعراء . . يقول البارودي :

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت ... به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يعتمدني بالإساءة غافل ... فلابد لابن الأيك أن يترنما

في المنفى

ونُفيَ محمود سامي البارودي مع زعماء الثورة العرابية إلى سرنديب فأقام بها سبعة عشر عامًا وبعض عام من الغربة والأسى والحرمان والمرارة . .

وفي عام ١٨٨٥ . . تزحف على البارودي مواكب الأحزان . . فيخطف الموت زوجته في القاهرة . . وتعتصر المنون شبابها ولم تتجاوز السابعة والثلاثين . . وكانت قد أمرضها الحزن وهرى كبدها الأسى ، وفتت مرارتها الألم . . منذ فراق الزوج الحبيب . . فلقيت ربها شهيدة الحب والوفاء . . ولم تكن قد أخبرته في رسائلها بأمر هذا المرض حتى لا تضيف إلى عذاب الغربة عذاب الألم من أجلها . . ويفاجأ البارودي وهو في منفاه بهذا النبأ . . فينزل عليه نزول الصاعقة . . وتدركه ربة الشعر :

سليلة القمرين

ورد البريد بغير ما أملته ... تعس البريد وشاه وجه الحادي
فسقطت مغشيًا عليَّ كأنما ... نهشت صميم القلب حية وادي
أبلتني الحسرات حتى لم يكد ... جسمي يلوح لأعين العوادِ
أسليلة القمرين أي فجيعة ... حلت لفقدك بين هذا النادي
أعزز عليَّ بأن أراك رهينة ... في جوف أغبر قاتم الأسداد
لو كان هذا الدهر يقبل فدية ... بالنفس عنك لكنت أول فادي
يا دهر فيم فجعتني بحليلة ... كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها ... أفلا رحمت من الأسى أولادي

حسرة وألم .. وأخبار عدم

ولا يترك القدر البارودى يفيق من صدمة وفاة زوجته حتى يلاحقه بأخرى . . فينشب الموت أظفاره فى شباب ابنته سميرة ، ويأتى نعيها إلى الأب المنكوب فى المنفى فلا يجد فى قلبه موضعًا لمزيد من الآلام ، ولا فى مقلتيه بقية من دموع . . ولا تجود عليه ربة الشعر بغير بيتين اثنين :

فزعت إلى الدموع فلم تجبنى ... وفقد الدمع عند الحزن داءُ
وما قصرت فى جزع ولكن ... إذا غلب الأسى ذهب البكاءُ

مصر البارودى والبارودى مصر

وحبيبة البارودى الأولى هى مصر التى تغنى بها وغنى لها ، وعاش لها وعايشها . . فإذا أردت البارودى فسل عنه مصر ، وإذا أردت مصر فسل عنها البارودى . .

سل مصر عنى

سل مصر عنى إن جهلت مكانتى ... تخبرك عن شرف وعز أقدمِ
بلد نشأت مع النبات بأرضها ... ولثمت ثغر غديرها المتبسمِ
فنسيمها روحى ومعدن تربها ... جسمى وكوثر نيلها محيا دمى
فإذا نطقت فالبثناء على الذى ... أولته من فضل علىّ وأنعمِ
أهلى بها وأحبتى وكفى بهم ... فخراً ملكت به عنان الأنجمِ
هى جنة الحسن التى زهراتها ... حور المهاوهزار أيكتها فمى

لحن العودة

ويعود البارودى من منفاه إلى حبيبته الأولى مصر . . وتعزف قيثارة الشعر لحن اللقاء ويغنى البارودى أنشودة العودة . . فما إن تقع عينه على مشارفها . . حتى ترفرف روحه ويشدو وجدانه . .

أبابل رأى العين أم هذه مصرُ ... فإنى أرى فيها عيونًا هى السحرُ

استغاثة

ويجأر البارودى إلى الله ، ويستغيث به ليقيله من عثرته ، ويشكو إليه طول شوقه لوطنه ويسأله أن يحل وثاقه ، ويفك أسره ، فيقول :

يا رب قد طال بى شوقى إلى وطنى   فاحلل وثاقى وألحقنى بأشباهى
وامنن علىَّ بفضل منك يعصمنى   من كل سوء فإنى عاجز واهى
هذا دعائى وحسبى أنت من حكم   يعنو له كل شاه أو شاهنشاه

البارودى الزاهد

ويقوى الزهد عند البارودى ويشتد حتى يصل به إلى أعتاب التصوف ، فيحس بنور الحكمة يغمر قلبه بعد أن وهب نفسه لله . . ويشعر من شدة وجده أنه فى حبه أُمَّة وحده . . كما يقول :

دينى الحنيف

دينى الحنيف وربى الله   وشهادتى أن ليس إلاه
لا جاه لى إلا بطاعته   ولنعم عقبى الطاعة الجاه
أنا خاشع لجلال قدرته   متقلب الجنبين أواه
زَهت القلوب بنور حكمته   وتعطرت بالذكر أفواه
أنا أُمَّة وحدى على سرف   فى حبه والناس أشباه
إن تاه غيرى بالزمان فلى   قلب بذكر الله تياه

غروب الشمس

وفى أصيل ليلة الإثنين الثانى عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٤ وقفت ربة الشعر حزينة كئيبة تعزف لحنها الجنائزى ، والبارودى يسلم روحه إلى بارئها ، وودعته وداعها الأخير ، بعد رفقة دامت نصف قرن رد إليها الشباب والقوة ، ووصلها بالمجد القديم ، ورفعها إلى مكانة عالية فى عصورها الذهبية . .

وتهتز مصر من الأسى والفجيعة ، وقد فقدت فى البارودى ابنًا من أعز أبنائها ورائدًا لنهضة أصيلة فى الشعر ، وفنانًا بعث الروح فى الأدب العربى كله ، ومجاهدًا ثائرًا قدم شبابه ، وحريته ، وماله ، ونور عينيه ، فداء لمصر . .

فقد أسلم محمود سامى البارودى رب السيف والقلم . . روحه الطاهرة فى خشوع وجلال . . لذى الجلال والإكرام . .

ولسان حاله يقول فى امتثال :

كل حى سيموتْ ... ليسْ فى الدنيا ثبوتْ
حركات سوف تفنى ... ثم يتلوها خفوتْ
وكلام ليس يحلو ... بعده إلا السكوتْ
أيها السادر قل لى ... أين ذاك الجبروتْ
كنت مطبوعًا على ... النطق فما هذا الصموتْ
عمرت منهم قبور ... وخلت منهم بيوتْ
إنما الدنيا خيال ... باطل سوف يفوتْ
ليس للإنسان فيها ... غير تقوى الله قوتْ

الوداع الأخير

وخرج مشهد البارودى من داره بباب الخلق ، وأمَّ المصلين عليه الشيخ محمد عبده ، وجاء الناس من كل صوب وحدب . . يودعون البارودى الوداع الأخير ، ويشيعون جثمانه إلى مثواه الأخير . . يتقدمهم عشاق فنه وشعره وعارفو فضله وجهاده الوطنى وتلاميذه ومريدوه من الشعراء .

ومن بعيد وعلى استحياء أرسل إليه أحمد شوقى باقة ورد كتب عليها :

هذا ثرى مصر فنم بسلام ... كم روعتك حوادث الأيام

والخلاصة

* أن البارودى شاعر النهضة الحديثة .

* والبارودى أول من كتب الشعر السياسى بوطنية وحماس .

* ولولا البارودى ما كان هؤلاء . . فهو الذى فتح الباب ليدخل منه شوقى وحافظ وإسماعيل صبرى وخليل مطران .

* وألوم الجيل الذى جاء بعده وأحمله مسئولية طمس هذه المنارة التى اهتدوا بها . . ثم أغفلوها .

* فالبارودى كالشمعة التى احترقت بعد أن اهتدى عليها الشعراء .

* إن الشعر كان تائهًا فى ظلمات الركاكة والضعف . . فأتى البارودى شمعة أضاء له واكتشفه وقدمه ثم ولى . .

* * *



عش ما بدا لك سالما * فى ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت * لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تقعقعت * فى ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً * ما كنت إلا فى غرور

«أبو العتاهية»

أبو العتاهية

يا نفس قد أزف الرحيل وأظلك الخطب الجليل
فتأهبي يا نفس لا يلعب بك الأمل الطويل
فلتنزلن بمنزل ينسى الخليل به الخليل
وليركبن عليك فيه من الثرى ثقل ثقيل
قرن الفناء بنا فما يبقى العزيز ولا الذليل
لا تعمر الدنيا فليس إلى البقاء بها سبيل
عما قليل يا أخا اللـ ـذات أنت لها قتيل
فهناك مالك ثم إلا فعلك الحسن الجميل
إنى أعيبك أن يميل بك الهوى فيمن يميل
والموت آخر علة يعتلها البدن العليل
فلربما عثر الجوادُ وربما حار الدليل
ولرب جيل قد مضى يتلوه بعد الجيل جيل
ولرب باكية علىّ غناؤها عنى قليل

أبو العتاهية : كُنية غلبت عليه . . واسمه إسماعيل بن القاسم . . أما عن سبب كُنيته بأبى العتاهية . . أن الخليفة المهدى قال له يومًا : أنت إنسان متحذلق معته . . فكنى بعدها بأبى العتاهية .

ولقد عاش أبو العتاهية فى القرن الثانى الهجرى . . نحو ثمانين عامًا . . وعاش ومات ببغداد . .

أما عن شعره فيقول عن نفسه : « لو شئت أن أجعل كلامى كله شعرًا لفعلت » .

ويقول عنه الأصمعى :

«شعر أبى العتاهية كساحة الملوك يقع فيه الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى» .

ويقولون عنه :

« إنه أشعر الإنس والجان » .

ويقول مصعب بن عبد الله :

« أبو العتاهية أشعر الناس » .

ويقول ابن الأعرابى :

« لم أر شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر » .

وقيل لأبى العتاهية : كيف تقول الشعر ؟

قال : ما أردته قط إلا مثل لى ، فأقول ما أريد وأترك ما لا أريد . إلا أنه كانت له أوزان لا تدخل فى العروض ، ولما سئل هل تعرف العروض ؟

أجاب : أنا أكبر من العروض .

يدلنا هذا : على أنه كان يميل إلى التجديد الشعرى . . إن لم يكن أحد مؤسسيه فقد حرر نفسه من التقيد بالمعانى والألفاظ والأوزان فأتى بمعان جديدة . . وكان شعره متأثراً بالأدب الفارسى ، والحكمة اليونانية ، وهو أول من فتح باب الوعظ والتزهيد فى الدنيا ، وإن كان تأثره بالحكمة الهندية واضحاً فى شعره . .

انظر إليه وهو يقول :

رغيف خبز يابس ... تأكله فى زاويه
وكوز ماء بارد ... تشربه من صافيه
وغرفة ضيقة ... نفسك فيها خاليه
أو مسجدُ بمعزل ... عن الورى فى ناحيه
تدرس فيه دفترا ... مستنداً بساريه
معتبراً بمن مضى ... من القرون الخاليه
خير من الساعات فى ... فىء القصور العاليه
تعقبها عقوبة ... تصلى بنار حاميه
فهذه وصيتى ... مخبرة بحاليه
طوبى لمن يسمعها ... تلك لعمرى كافيه
فاسمع لنصح مشفق ... يدعى أبا العتاهيه

متاع الغرور

قال الأصمعي :

صنع الرشيد طعامًا وزخرف مجالسه وأحضر أبا العتاهية . . وقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا :

فقال أبو العتاهية :

عش ما بدا لك سالما ... في ظل شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت ... لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تقعقعت ... في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنًا ... ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد . .

فقال الفضل بن يحيى البرمكي . . أبعث إليك أمير المؤمنين لتسره فتحزنه . .

فقال الرشيد : دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه .

وروى أنه جلس في دكان وراق . . فأخذ كتابًا . . فكتب على البديهة . . على ظهره . . أبياته الشهيرة :

ألا إننا كلنا بائدُ ... وأي بني آدم خالدُ
وبدؤهم كان من ربهم ... وكل إلى ربه عائدُ
فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهدُ
وفي كل شيء له آيةٌ ... تدل على أنه الواحدُ

ولما انصرف أبو العتاهية . . اجتاز أبو نواس بالموضع ، فرأى الأبيات . . فقال لمن هذا؟

فقيل لأبي العتاهية . .

فقال أبو نواس :

لوددت لو أنها لي بجميع شعري . .

ثم ينتقل أبو العتاهية إلى علامات الأخ الصادق ، والصديق الحق ، فى بيتين من الشعر النفيس الذى أصبح على الألسنة يردده العامة والخاصة :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدّعك شتت فيك شمله ليجمعك

قال المسعودى :

لو لم يكن لأبى العتاهية . . إلا هذه الأبيات . . التى أبان فيها عن صدق الإخاء ، ومحض الوفاء ، لكان مبرزًا على غيره ممن كان فى عصره .

وكثيرًا ما كان أبو العتاهية يصوغ أحاديث النبى ﷺ شعرًا : يقول رسول الله ﷺ :

« الوحدة خير من جليس السوء .. والجليس الصالح خير من الوحدة » صدق رسول الله ﷺ وقد تناول أبو العتاهية هذا الحديث شعرًا . . فقال فى أسلوب مشرق وضاء :

وحدة الإنسان خيرٌ من جليس السوء عنده
وجليس الخير خيرٌ من جلوس المرء وحده

عبد الهوى

ثم ينتقل أبو العتاهية . . واصفًا عبد الهوى ، عبد الذات . . داعيًا إياه بالجد والاجتهاد . . إلى سبيل الرشاد . . فيقول :

جدوا فإن الأمر جدُّ وله أعدوا واستعدوا
لا يستقال اليوم إن ولى ولا للأمر ردُّ
لا تغفلن فإنما آجالكم نفسٌ يعدُّ
وحوادث الدنيا تروح عليكم طورًا وتغدو
والموت أبعد سنة ما بعد بعد الموت بعدُ
إن الألى كنا نرى ماتوا ونحن نموت بعدُ
يا غفلتى عن يوم يجمع شرتى كفنٌ ولحدُ
ضيعت ما لا بد لى منه بما لى منه بدُّ

أأخى كن مستمسكاً | بجميع مالك فيه رشدُ
ما نحن فيه متاع أيام | تعار وتستردُّ
هون عليك فليس كل | الناس يعطى ما يردُّ
إن كان لا يغنيك ما | يكفيك ما لغناك حدُّ
لا تمض رأيك فى هوى | إلا ورأيك فيه قصدُ
من كان متبعاً هواه | فإنه لهواه عبدُ

ولما دفن على بن ثابت . . وقف أبو العتاهية على قبره . . يبكى طويلاً . . أحر بكاء ويردد هذه الأبيات التى تفيض بالمعانى وتزخر بالأمانى :

ألا من لى بأنسك يا أخيا | ومن لى أن أبثك ما لديا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر | كذاك خطوبه نشرا وطيا
فلو نشرت قواك لى المنايا | شكوت إليك ما صنعت لديا
بكيتك يا على بدمع عينى | فما أغنى البكاء عليك شيًّا
كفى حزناً بدفنك ثم إنى | نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت فى حياتك لى عظات | فأنت اليوم أوعظ منك حيا

ولو تأملنا هذه المعانى . .

لوجدناها من كلام الفلاسفة القدماء عندما أحضروا تابوت الإسكندر ، وقد أخرج الإسكندر ليدفن . .

فقال بعضهم : كان الملك أمس أهيبَ منه اليوم . . وهو اليوم أوعظ منه أمس .

وقال آخر : سكنت حركة الملك فى لذاته، وقد حركنا اليوم فى سكونه جزعاً لفقده . .

وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية فى هذه الأشعار .

غاية كل حى

ثم ينسى الموت بذكره ، أو يذكره بنسيانه . . فيقول أبو العتاهية :

نسيت الموت فيمن قد نسيت | كأنى لا أرى أحداً يموت
أليس الموت غاية كلِ حى | فما لى لا أبادر ما يفوت

ثم يشركنا معه فى مبادرته إلى الآخرة . . فيقول :

لم لا نبادر ما نراه يفوت إذ نحن نعلم أننا سنموت
من لم يوال الله والرسل التى نصحت له فوليه الطاغوت

ثم يأمرنا بالتقوى والمسارعة بها قبل فوات الأوان . . فى أسلوب جزل رائع . . فيقول :

انظر لنفسك يا شقى حتى متى لا تتقى
أما ترى الأيام تختلس النفوس وتنتقى
لا تكذبن فإنه من يجتمع يتفرق
والموت غاية من مضى منا وموعد من بقى

فلا شرف فى الدنيا بلا شرف الآخرة :

يقول أبو العتاهية :

أقسم بالله وآياته شهادة باطنة ظاهرةْ
ما شرف الدنيا بشىء إذا لم يتبعه شرف الآخرةْ

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(1) .

يقول أبو العتاهية :

ليت شعرى فإننى لست أدرى أى يوم يكون آخر عمرى
وبأى البلاد يقبض روحى وبأى البلاد يحفر قبرى

ومن عاش وشاهد وسمع وذاق حلوها ومرها . . لم يجد غير القناعة مغنما . .

أنت حر

من عاش عاين ما يسوء من الأمور وما يسرْ
ولرب حتف فوقه ذهب وياقوت ودرْ
فاقنع بعيشك يا فتى واملك هواك وأنت حرْ

(1) سورة لقمان - الآية ٣٤ .

ثم يتذكر الحساب ، ويذكر به ، وأن الموت ليس نهاية المطاف ، وإنما هو نهاية البداية ، وبداية النهاية . . فيقول أبو العتاهية :

فلو أنا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حى
ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شى

ثم ينسى الموت بذكره أو يذكره بنسيانه :

نسيت الموت فيما قد نسيت ... كأنى لا أرى أحداً يموت
أليس الموت غاية كل حى ... فما لى لا أبادر ما يفوت

وهنا يقلل ويحقر من شأن الدنيا . . ويسفه من حجمها :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه ... هموماً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بشر ... وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شىء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه

ثم ينادى النفس آمراً إياها بالسكينة . . شاملاً بالحق دينه . .

يا نفس إن الحق دينى ... فتذللى ثم استكينى
فإلى متى أنا غافل ... يا نفس ويحك خبرينى
يا نفس لا تتضايقى ... وثقى بربك واستعينى
وتفكرى فى الموت سا ... عات لعلك أن تلينى
فلتغشينى غشية ... يندى لسكرتها جبينى
ولتجعلنى بعد خلقى ... طينة لحقت بطين
ولتأتين على تحت ... الترب حينا بعد حين

ثم يُصَعِّدُ قلبه . . سلم التوبة . . مخاطبًا ربه . . فى خشوع ورهبة . . فيقول :

إلهى لا تعذبنى فإنى ... مقر بالذى قد كان منى
فما لى حيلة إلا رجائى ... بعفوك إن عفوت وحسن ظنى
فكم من زلة لى فى الخطايا ... عضضت أناملى وقرعت سنى
يظن الناس بى خيراً وإنى ... لشر الخلق إن لم تعف عنى

* * *

نح على نفسك يا مسكين

أخبر صاحب الأغانى قال :

حدثنى الصولى عن أبى صالح العدوى قال :

أخبرنى أبو العتاهية قال :

كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات[1] . . إذا ركبها . . وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال :

قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه ، فقيل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية ، وهو الآن فى الحبس . . قال :

فوجه إلى الرشيد قل شعراً حتى أسمعه منهم ، ولم يأمر بإطلاقى ، فغاظنى ذلك فقلت : والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسر به ، فعملت شعراً . . ودفعته إلى من حفظه من الملاحين . .

فلما ركب الحراقة سمعهم يقولون :

خانك الطرف الطموح ... أيها القلب الجموح !
لدواعى الخير والشر ... دنو ، ونزوح
هل لمطلوب بذنب ... توبة ، منه ، نصوح
كيف إصلاح قلوب ... إنما هن قروح
أحسن الله بنا ... إن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا ... بين ثوبيه فضوح
كم رأينا من عزيز ... طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل ... صائح الدهر ، الصدوح
موت بعض الناس ، فى ... الأرض ، على البعض فتوح
سيصير المرء ، يوماً ... جسداً ما فيه روح
بين عينى كل حى ... علم الموت يلوح
كلنا فى غفلة والمـ ... ـوت يغدو ، ويروح

(١) المراكب النهرية .

لبنى الدنيا من الدنيـ ـا غبوق ، وصبوح
رحن فى الوشى وأصبحـ ـن عليهن المسوح
كل نطاح من الدهر له يوم نطوح
نح على نفسك يا مسكين ، إن كنت تنوح
لست بالباقى ولو عمّـ ـرْتَ ما عَمَّرَ نوح

قال :

فلما سمع الرشيد جعل يبكى وينتحب . .

و كان الرشيد من أغزر الناس دموعًا فى وقت الموعظة ، وأشدهم عسفًا فى وقت الغضب والغلظة ، فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه . . أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا .

انصر أخاك

وذات يوم وجد الرشيد على أبى العتاهية . .

فكان أبو العتاهية يرجو أن يتكلم الفضل بن الربيع فى أمره . . فأبطأ عليه بذلك . .

فكتب إليه يقول :

جفاء

أجفوتنى فيمن جفانى وجعلت شأنك غير شانى
ولطالما أمّنتنى مما أرى .. كل الأمانى
حتى إذا انقلب الزمـ ـان علىّ ، صرت مع الزمان

ثم ها هو يحذر . . من تقلبات الزمان . . وبدعه المستحدثة فيقول :

لا تكذبن

لا تكذبنّ ، فإننى لك ناصح ، لا تكذبنّه
وانظر لنفسك ما استطـ ـعت ، فإنها نار وجنه
صار التواضع بدعة فيها وصار الكبر سنه

خيلاء ابن آدم

وأخبر أحمد بن عبيد بن ناصح قال :

كنت أمشى مع أبى العتاهية . . يده فى يدى . . وهو متكئ علىّ ينظر إلى الناس يذهبون ويجيئون . . فقال :

أما تراهم . . هذا يتيه فلا يتكلم ، وهذا يتكلم بصلف . .

ثم قال لى : مر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يخطر فقال : يا بنى لو خفضت بعض هذه الخيلاء . . ألم يكن أحسن بك من هذه الشهرة التى قد شهرت بها نفسك !

فقال له الفتى : أو ما تعرف من أنا ؟

فقال له : بلى والله أعرفك معرفة جيدة . .

أولُكَ طينة مذرة . . وآخِرُكَ جيفة قذرة . . وأنت بين ذينك حامل عذرة .

قال : فأرخى الفتى أذنيه وكف عما كان يفعل . . وطأطأ رأسه ومشى مسترسلاً .

ثم أنشدنى أبو العتاهية :

واها له واها

أيا واها لذكر اللّه ، يا واها له ، واها !
لقد طيب ذكر اللّه بالتسبيح أفواها
فيا أنتن من زبل على زبل إذا تاها
أرى قوماً يتيهون بها مّا رزقوا جاها

المخدوع بمناه

المرء يخدعه مناه والدهر يسرع فى بلاه
يا ذا الهوى مه ! لا تكن ممن تعبده هواه !
واعلم بأن المرء مرتهـ ـن بما كسبت يداه

كم من أخ لك لا ترى متصرفًا ، فيما تراه
أمسى قريب الدار في الأجـ ـداث قد شحطت نواه
قد كان مغترًا بيوم وفاته ، حتى أتاه
الناس في غفلاتهم والموت دائرة رحاه
فالحمد لله الذى يبقى ، ويهلك ما سواه

الدنيا لمن هي في يديه

حدث على بن يزيد الخزرجي الشاعر عن يحيى بن الربيع قال :

دخل أبو عبيد الله على المهدى . . وكان قد وجد عليه فى أمر بلغه عنه ، وأبو العتاهية حاضر المجلس ، فجعل المهدى يشتم أبا عبيد الله ويتغيظ عليه ثم أمر به فجر برجله . . ثم أطرق المهدى طويلا . . فلما سكن أنشده أبو العتاهية :

أرى الدنيا لمن هي في يديه همومًا ، كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بشر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

فتبسم المهدى وقال لأبى العتاهية :

أحسنت . . فقام أبو العتاهية ثم قال :

والله يا أمير المؤمنين ما رأيت أحدًا أشد إكرامًا للدنيا ، ولا أصون لها ، ولا أشح عليها ، من هذا الذى جر برجله الساعة ، ولقد دخلت إلى أمير المؤمنين ، ودخل هو ، وهو أعز الناس ، فما برحت حتى رأيته أذل الناس ، ولو رضى بما يكفيه من الدنيا . . لاستوت أحواله ولم تتفاوت . فتبسم المهدى ودعا بأبى عبيد الله فرضى عنه ، فكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبى العتاهية .

أنا بالله وإليه

أنا بالله وحده وإليه إنما الخير كله في يديه
أحمد الله وهو ألهمنى الحمـ ـد على المن والمزيد لديه
كم زمان بكيت منه قديمًا ثم لما مضى بكيت عليه

اغضب على الطمع

ثم يحذر من الطمع تحذيرًا بليغًا فيقول :

لا تغضبن على امرئٍ لك مانع ما في يديه
واغضب على الطمع الذي استدعاك تطلب ما لديه

ثم يتحدث بعد ذلك عن النفس الضالة . . التي لا ترعوى . . ولا تتراجع . . آمرًا إياها . . بالتشبه بالصالحين . . إن لم تكن كذلك . . فيقول :

يا نفس ! أنى تؤفكينا حتى متى لا ترعوينا
حتى متى لا تقلعـ ـين ، وتسمعين ، وتبصرينا
أصبحت أطول من مضى أملاً ، وأضعفهم يقينا
وليأتين ، عليك ، ما أفنى القرون الأولينا
يا نفس إلا تصلحي فتشبهي بالصالحينا
وتفكري فيما أقو ل ، لعل قلبك أن يلينا
أين الألى جمعوا وكا نوا ، للحوادث ، آمنينا
أفناهم الأجل المطـ ـل على الخلائق أجمعينا
فإذا مساكنهم وما جمعوا لقوم آخرينا

الجهاد الأكبر

ثم يتحدث بعد ذلك عن الجهاد الأكبر . . جهاد النفس . . فلقد قال رسول الله ﷺ :

عدنا من الجهاد الأصغر . . إلى الجهاد الأكبر . . « وكان عائدًا من إحدى الغزوات » فقال الصحابة :

وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟

قال ﷺ :

« جهاد النفس » .

يقول أبو العتاهية فى هذا المعنى العظيم :

أشد الجهاد جهاد الهوى ... وما كرم المرء إلا التقى
وأخلاق ذى الفضل معروفةٌ ... ببذل الجميل ، وكف الأذى
وكل الفكاهات مملولة ... وطول التعاشر فيه القلى
وكل طريف له لذة ... وكل تليد سريع البلى
ولا شىء إلا له آفة ... ولا شىء إلا له منتهى
وليس الغنى نشبٌ فى يد ... ولكن غنى النفس كل الغنى
وإنا لفى صنع ظاهر ... يدل على صانع لا يرى

ستـرى

ثم يؤكد هذا المعنى مستلهمًا قوله تعالى :

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾[1] . .

سترى ، بعد ما ترى ... غير هذا الذى ترى
سترى ، ما بقيت ، ما ... يمنع الناعس الكرى
سترى من يصيرُ بعـ ... ـد نعيم إلى الثرى
سترى كل حادث ... كيف يجرى إذا جرى

التوسط فى الأمر

إذا ما الشىء فات فَسَرِّ عنه ... ولا تشهد بما لم تستبنه
توسط كل رأى أنت فيه ... وخذ بمجامع الطرفين منه

(١) سورة التكاثر .

ثم ختم أبو العتاهية حياته . . مستغفراً . . باكيًا . . خاشعًا . . خاضعًا . . لله رب العالمين . .

وعندما وافته المنية . . كان آخر كلامه . . لا إله إلا الله . . وكان آخر شعره . . في مرضه الذي مات فيه . .

إلهى لا تعذبنى

إلهى لا تعذبنى فإنى . مقر بالذى قد كان منى
وما لى حيلة إلا رجائى وعفوك ، إن عفوت وحسن ظنى
فكم من زلة لى فى البرايا وأنت علىّ ذو فضلٍ ومَنٍ
إذا فكرت فى ندمى عليها عضضت أناملى ، وقرعت سنى
يظن الناس بى خيراً وإنى لشر الخلق إن لم تعف عنى
أجن بزهرة الدنيا جنونا وأفنى العمر فيها بالتمنى
وبين يدى محتبسٌ ثقيل كأنى قد دعيت له ، كأنى
ولو أنى صدقت الزهد فيها قلبت لأهلها ظهر المِجَن

غروب الشمس

ثم غربت شمس شاعر الزهد الأول بلا استثناء . . وأسلم روحه إلى بارئها . . بعد حياة حافلة وهبها للدعوة بالتحذير من هازم اللذات . . الموت الذى لابد منه . . حتى أصبح علمًا عليه .

لقد ذكر أبو العتاهية الموت أكثر من ألف مرة . . حتى أصبح اسم أبى العتاهية مقترنًا بالموت . . فيذكر شعر الموت مع اسم أبى العتاهية . . ويذكر أبو العتاهية مع ذكر الموت . .

ولقد كان له دوره الكبير فى إيقاظ القلوب الغافلة . . فى عصر غفلت فيه كثير من القلوب . . ونامت فيه كثير من الهمم . . واستيقظت فيه كثير من الفتن . . فهيأه الله بقلمه البديع الزاهد . . لتحريكها وبث الروح فيها . .

وفى الحديث : « ذاكر الله بين الغافلين ..

كالحى بين الميتين » .

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الفجر - الآيات ٢٧ - ٣٠ .

المراجــع

١ - القـــرآن الكـريم .... كتاب الله الكريم .

٢ - صفوة التفاسير .... للصـــابونى .

٣ - المعجم المفهرس .... محمد فؤاد عبد الباقى .

٤ - المعجم الوسيط .... مجمع اللغة العربية .

٥ - التصوف الإسلامى .... للدكتور زكى مبارك .

٦ - محمد إقبال .... للدكتور عبد الوهاب عزام .

٧ - إقبال الشاعر الثائر .... للدكتور نجيب الكيلانى .

٨ - الشـــوقيـــات .... لأمير الشعراء أحمد شوقى .

٩ - ديوان البوصيرى .... للبوصـــيرى .

١٠ - إمام المادحين .... عبد العليم القبانى .

١١ - ديوان ابن الفارض ....

١٢ - سلطان العاشقين .... للدكتور أحمد الشرباصى .

١٣ - ديوان محمود سامى البارودى ....

١٤ - محمود سامى البارودى .... للدكتور على الحديدى .

١٥ - ديوان حافظ إبراهيم ....

١٦ - الفاروق عمر .... للدكتور محمد حسين هيكل .

١٧ - بلابل من الشرق .... للشاعر صالح جودت .

١٨ - ديوان أبو العتاهية ....

١٩ - أبو العتاهية .. الشاعر الزاهد ....

٢٠ - مع إقبال .... للأستاذ عبد اللطيف الجوهرى .

صدر للمؤلف حديثا

١ - السعى إلى الآخرة .

٢ - السحر والسحرة .

٣ - من خشية الله .

٤ - فى رحمة الله .

٥ - حديقة الأولياء .

٦ - أسماء الله الحسنى .

٧ - شعراء الإسلام .

٨ - رمضان كريم .

٩ - نفحـــات .

١٠ - الكلمة الطيبة .

١١ - الفوز العظيم .

كما صدر للمؤلف دواوين

١ - لؤلؤ ومرجان . شـعـر

٢ - عدالة عمر . شـعـر

٣ - الملكة سوسينا . شـعـر

تحت الطبع

٤ - الحبيب الأول . شـعـر

٥ - السعادة الزوجية

٦ - بنات المصطفى .

٧ - قالوا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)

٨ - أفلا يبصرون .

فهرست الكتاب